تقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد تعدَّدت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وتنوعت الأسباب التي جعلته مبهراً للناس في كل زمان ومكان، فتوجَّهتْ جهود العلماء للكشف عن بعض هذه الوجوه ودراستها، رغبةً في الوصول إلى شيءٍ من عجائبه وأسراره، ولا شك أنَّ الوجه البلاغي كان من أبرز تلك الوجوه، فنال النصيب الأكبر من اهتمامهم، إذ طفقوا يتأملون في ألفاظه وتراكيبه وطريقة نظمه، ويستجلون ما أمكنهم من أسراره البلاغية وجمالياته البيانية.

ويمثل التناسب في القرآن مدخلاً مهماً من المداخل التي تكشف عن مدى بلاغته وقوة فصاحته، حيث جاءت سوره وآياته في أعظم ترتيب وأجمل تنسيق، إذ يرى المتأمل أنَّ كلَّ سورةٍ جاءت في مكانها المحكم، وكلَّ آيةٍ في موضعها الدقيق، إذ لا يمكن لأحد أن يغير مكان سورة أو يبدل موضع آية إلا حصل الخلل وضاع المعنى وامتنع المراد عن الأفهام.

ولهذا فقد أكد العلماء على أنَّ السورة مهما تعدَّدتْ قضاياها فهي كلامٌ واحد، يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرضٍ واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في

القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى له عن ذلك في أجزاء القضية.

وقد جاءت سور القرآن مرتبةً بترتيبٍ دقيقٍ معجز، بحيث تتوثَّق الصلات بين السورة وما بعدها، وتنبئ هذه عن تلك وتمهد لها، فلا يتصور المتأمل أن يأتي بعدها إلا أختها، لما بينهما من الصلات والوشائج والعلاقات الوثيقة، كما أنَّ آياته قد جاءت في أبدع نظام وأدق ترتيب، فترى كل آية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بما بعدها على أحسن نظم وأجمل مناسبة، وكل مشهد في السورة الواحدة يبشر بالمشهد الذي بعده ويتصل به اتصالاً وثيقاً، مما يؤكد عظمة هذا الكتاب الحكيم، واستحالة أن يكون من صنع بشر.

ولكنَّ هذا الوجه من إعجاز القرآن البلاغي لم يلقَ من المفسرين اهتماماً كبيراً، فأهمله كثيرٌ منهم، ولعل ذلك راجع إلى صعوبته ووعورة طريقه، وحاجته إلى فضل وقت للتأمل فيه، ومزيد من التدبر والتفكر للوصول إلى مكنونه، واقتضب الإشارة إليه بعضهم، فلم يأتوا فيه بما يشفي الغليل ويروي العليل، ولم يُعنَ به إلا قلة قليلة من العلماء الذين شمروا سواعدهم وبذلوا جهودهم وعقولهم وأوقاتهم للكشف عن أسراره والبحث في جمالياته، ومع هذا فلا يزال كثير من هذه الجماليات خافياً لم يفصح عنه.

ومن هنا تأتي هذه الدراسة التي تتغيا الكشف عن شيء من جماليات التناسب القرآني، وتحاول أن تفصح عن لمحات من عظمته وبلاغته، وتسعى إلى تلمس بعض أسرار ترتيبه وعجائب نظامه، من خلال اختيار جزء من أجزائه يضم مجموعةً من سوره الكريمة، والوقوف عند جماليات ترتيبها وأسرار تواليها، وتجلية ما بينها من صلاتٍ ووشائج، كما تتوجَّه الدراسة إلى بيان عجائب النظام في السورة الواحدة، من خلال النظر في ترابط مشاهدها، والتأمل في صلة أولها بآخرها، وصلة كل ذلك بموضوعها وفكرتها الرئيسة ومقصودها العام.

وقبل الدخول في غمار هذه الدراسة أجدني ملزماً ببيان بعض القضايا العلمية والمنهجية التي لا بد للقارئ أن يدركها قبل أن يبحر في هذه الصفحات، منها:

- مفهوم التناسب واسع كما سأكشف عنه في تمهيد هذه الدراسة، ومعالجته بهذا المفهوم في سورة واحدة -فضلا عن جزء كامل يضم سبع سور- يحتاج إلى دراسات موسعة، ولهذا فقد رأيت الاكتفاء بأبرز صور التناسب وأشهرها؛ طلباً للتركيز، وسعياً إلى العمق في التحليل، فضلاً عن مناسبة ذلك لطبيعة هذا النوع من الدراسات.

- سيلحظ القارئ الكريم أنَّ المباحث الثلاثة الأولى قامت على استقراء جميع المواضع التي تتجلى فيها المناسبات؛

لسهولة حصرها وتحديدها، أما المبحث الأخير فكان قائماً على الانتقاء؛ لأنه يسعى إلى استكناه جماليات التناسب بين مشاهد السورة الواحدة، ومثل هذه المعالجة يصعب معها الاستقراء؛ لتعدد المشاهد في السورة الواحدة فضلا عن سبع سور، ومثل هذا الاستقراء يحتاج إلى دراسة مستقلة.

- من خلال تتبعي لدراسات العلماء والدارسين وإشاراتهم إلى التناسب البياني في القرآن وجدتُ أنَّ كثيراً منهم يعمد إلى الإيجاز والاختصار الذي يكاد يكون مخلاً، بما لا يتبين معه بوضوح إعجاز القرآن في هذا المجال، وهذا يعود إما لظنهم أنَّ هذا كافٍ في إقناع المتلقي بهذا النوع من الإعجاز، أو لعدم قدرة بعضهم على استجلاء تفاصيل هذا التناسب، أو لطبيعة دراساتهم التي يقوم بعضهم على تفسير القرآن في المقام الأول، ومن ثم لا يكون بيان التناسب مقصوداً لذاته، وأيا كان السبب فقد جاءت كثير من هذه النظرات سطحية بعيدة عن العمق والتحليل الدقيق، ولهذا فقد حاولتُ في هذه الدراسة تلافي ذلك، والوقوف طويلاً عند مواضع التناسب المدروسة، والسعي إلى استكناه كل ما يمكن من جماليات، والنظر من خلال زوايا متعددة إلى براعة القرآن في تحقيقه لهذه المناسبات البديعة، مبتعداً قدر الطاقة عن التكلف في التحليل والتعسف في تجلية الأسرار البيانية.

- عدم الاكتفاء بما ذكره المفسرون والعلماء من إشارات للتناسب في هذا الجزء الكريم، بل كنتُ أتأمل وأتدبر وأحاول أن أستكنه الجماليات بنظر خاص واجتهاد مستقل، غير مغفلٍ كلامهم الذي كنتُ أستضيء به وأنطلق منه، بل كنتُ أبدأ بالتحليل قبل النظر في كلامهم، حتى لا أكون مأسوراً به بوعي أو دون وعي، وأشعر بالسرور حين أراني وافقتهم في بعض ما قدَّموه من جماليات.

- لم يتفق العلماء في تحديد دقيق لمطلع السورة، وقد قصدتُ به في هذه الدراسة ذلك المشهد الافتتاحي الذي يكوّن فكرةً رئيسةً واحدةً حسب تقديري، وكذا يقال في الخاتمة والمشهد، على أني كنتُ أحياناً أتمدَّد لأزيد في المطلع أو في الخاتمة بضع آيات لإيضاح بعض المناسبات والجماليات، خاصة تلك التي نصَّ عليها المفسرون والعلماء.

- تعارف العلماء والمفسرون على إدخال أول الذاريات في هذا الجزء، مع أنه في الحقيقة يبدأ من منتصفها، وتحديدا من آيتها الحادية والثلاثين، وقد سرتُ حسب ما تعارفوا عليه، ورغبةً في تناول هذا الجزء بصورة كاملة، وعدم تجزيئه وتفريقه.

- لم أتحدث عن علاقة سورة الذاريات بما قبلها وهي سورة ق، ولا عن علاقة سورة الحديد بما بعدها وهي سورة المجادلة؛ نظراً لخروج هاتين السورتين: ق والمجادلة بكامل آياتهما عن

هذا الجزء، ورغبةً في تركيز الدراسة على العلاقات التي تنتظم سوره فحسب.

وسعياً إلى تحقيق ذلك فقد جعلتُ هذه الدراسة مُكوَّنةً من مُقدِّمةٍ وتَمهيدٍ وفصلين، أمَّا التمهيد فقد أشرتُ في فقرته الأولى بإيجازٍ إلى **التناسب البياني في القرآن**، وكشفتُ في فقرته الثانية بإيجاز أيضاً عن **جزء الذاريات** من حيث موضوعات سوره، والمكي منها والمدني، وفضلها، وترتيبها، أما الفصل الأول فكان الحديث فيه عن **جماليات التناسب بين السور**، واقتضت طبيعته أن يقسم إلى مبحثين:

المبحث الأول: جماليات التناسب بين خاتمة السورة ومطلع ما بعدها.

المبحث الثاني: جماليات التناسب بين السورة وما قبلها.

أما الفصل الثاني من الدراسة فكان عن **جماليات التناسب في السورة الواحدة**، وجاء مكوناً من مبحثين أيضا، وهما:

المبحث الأول: جماليات التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها.

المبحث الثاني: جماليات التناسب بين مشاهد السورة.

وختمتُ بخاتمةٍ بيَّنتُ فيها أبرز النتائج التي توصَّلتْ إليها هذه الدراسة، راجياً من المولى القدير أن يجعلها خالصةً لوجهه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

التمهيد

أولا: التناسب البياني في القرآن:

لا يختلف اثنان على عظمة هذا الكتاب العظيم الذي أنزله المولى ﷻ هدى ورحمة للعالمين، ولا يشك أحد في إعجازه وبلاغته التي أبهرت الثقلين، ولذا فلا غرو أن تتجه أنظار العلماء إليه، وتتوجه جهودهم إلى محاولة الكشف عن أسراره وعجائبه، ومنها ارتباط سوره وآياته ارتباطاً وثيقاً حتى غدت كالكلمة الواحدة، مع نزوله منجماً في أوقات مختلفة وأحكام متنوعة، وقد سموا هذا الترابط (علم المناسبات)، وأفاضوا في إطرائه والحديث عن أهميته.

وتدور دلالات التناسب اللغوية حول قرب الشيء من الآخر واتصاله به، أو مشاكلته له وتجانسه معه[1]، ولعل البقاعي من أوائل العلماء الذي رسموا طريقاً واضحاً لهذا العلم، وذلك حين نصَّ على تعريفه في تفسيره فقال: "علم مناسبات القرآن هو علمٌ تُعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرُّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"[2]، ويقول الزركشي عن فائدته بأنها "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال

(١) انظر: مقاييس اللغة: ٤٢٣/٥، لسان العرب: ٧٥٦/١، القاموس المحيط: ١٧٦.

(٢) نظم الدرر: ٥/١، وقارنه بما قاله في: مصاعد النظر: ١٤٢/١.

البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[١]، أما الرازي فيرى أنَّ "أكثر لطائف القرآن مودعَةٌ في الترتيبات والروابط"[٢]، ويقول في تفسيره لآخر سورة البقرة: "ومَن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أنَّ القرآن كما أنه معجزٌ بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجزٌ بحسب أسلوبه أرادوا ذلك"[٣].

وينطلق العلماء في حديثهم عن التناسب القرآني وبلاغته من أصل شرعي مهم، وهو أنَّ ترتيب الآيات توقيفي من المولى ﷻ، وهو ما أجمع عليه العلماء بالنظر إلى النصوص المتواترة، يقول الغرناطي: "اعلم أولاً أنَّ ترتيب الآيات في سورها واقعٌ بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين، وإنما اختُلف في ترتيب السور على ما هي عليه"[٤]، وهنا يأتي هذا العلم ليستكنه جماليات هذا الترتيب، ويقول الزركشي: "لترتيب وضع السور في المصحف أسبابٌ تطلع على أنه توقيفيٌّ صادرٌ عن حكيم، أحدها بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة، وثالثها للوزن في اللفظ كآخر

---

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣٦/١، وانظر: الإتقان: ٧٢٥/٣.
(١) المرجع السابق.
(٢) مفاتيح الغيب: ١٠٦/٧.
(٣) البرهان في تناسب سور القرآن: ٧٣، وانظر: تسهيل السبيل: ٦٩٨/٣.

تبَّت وأول الإخلاص، ورابعها لمشابهة جملة السورة لأخرى مثل (والضحى) و(وألم نشرح)"[1]، ويقول ابن أبي الإصبع: "من أدلِّ الدليل على أنَّ هذا الترتيب من الله سبحانه: وقوعه على ما وقع عليه باعتقاد الإجماع ونقل التواتر... ولا خلاف في انعقاد الإجماع على هذا المصحف الذي بين أيدينا المرتَّب على هذا الترتيب"[2].

ومما يؤسف له أنَّ جهود العلماء في هذا الميدان ظلت قليلة، إما لدقة أسرار هذا العلم وحاجته إلى مزيد من التدبر والتفكر، أو لاعتقاد بعضهم أنه غير موجود في القرآن أصلا، ومع هذا فقد وُجد منهم مَن أفرده بالتصنيف، كأبي جعفر الغرناطي في كتابه (البرهان في ترتيب سور القرآن)، والبقاعي في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وهو أكبر كتاب في هذا العلم؛ لأنه قائمٌ على تجلية مناسبات القرآن على اختلاف أنواعها، والسيوطي في كتابيه (تناسق الدرر في تناسب السور) و(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، ومن المعاصرين محمد التهانوي في كتابه (سبق الغايات في نسق الآيات)، وأبو الفضل الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

---

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢٦٠/١.
(١) الخواطر السوانح: ٩٤.

أما فوائد هذا العلم والبحث فيه فكثيرة متعددة، منها ترسيخ الإيمان بإظهار إعجاز القرآن، والبرهنة على تلاحم آياته وسوره، وشدة اتصال بعضها ببعض، ونفي الشُّبَه المثارة حول نظم الآيات ونسق الترتيب فيها، كما يفيد هذا العلم في الوصول إلى التفسير الحق في الآيات التي اختلف المفسرون في فهم معانيها، إضافة إلى الكشف عن ظاهرة التكرار في القرآن(١)، وهي فوائد وغايات تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقها أو تحقيق بعضٍ منها.

ثانيا: جزء الذاريات:

- سوره:

جزء الذاريات هو الجزء السابع والعشرون من أجزاء القرآن الكريم، يبتدئ بسورة الذاريات، وينتهي بنهاية سورة الحديد، ويضم سبع سور هي: الذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والحديد، وسمي هذا الجزء بالذاريات لابتدائه بها.

- المكي منها والمدني:

اتفق العلماء على أنَّ سور هذا الجزء مكية، ولم يختلفوا إلا في سورة الحديد، وهو خلافٌ قويٌّ لم يُختلف في مثله، فذهب الجمهور إلى أنها مدنية، وحكى ابن عطية عن النقاش أنَّ ذلك

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/١، وانظر: الوحدة السياقية للسورة: ١٥٧.

إجماع المفسرين، وقيل إنَّ صدرها مكي، لحديث ابن مسعود: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿قطاع يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف﴾ (الحديد: ١٦) إلا أربع سنين"[١]، وابن مسعود من أوائل الناس إسلاما، وذهب ابن عاشور[٢] إلى أنَّ صدرها مكي إلى نهاية الآية التاسعة، وأنَّ ما بعدها بعضه نزل بالمدينة -وهو الغالب- كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل في مكة كما في حديث ابن مسعود.

- موضوعاتها:

تتشابه موضوعات السور المكية، فهي غالباً تعنى ببيان أصول العقيدة وترسيخها في النفوس، وتدعو إلى أركان الإيمان الاعتقادية، وهي الإيمان بالألوهية والربوبية، وتصديق النبي ﷺ فيما جاء به وأخبر به، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء والحساب، وقد جاءت سور هذا الجزء لتقرر هذه الأركان وتؤكد هذه الأصول، من خلال إقامة الأدلة العقلية والكونية على حقيقتها، ومحاجَّة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم، وبيان بطلان عبادتهم للأصنام.

---

(٢) رواه مسلم: ٢٣١٩/٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٥٣/٢٧.

كما يستدعي ذلك حكاية بعض أحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم، للتدليل على صدق هذه الدعوة والتخويف من التكذيب بها، إضافة إلى تصوير موقف المشركين من الإيمان وسخريتهم بالدعوة وتكذيب نبيهم الذي تسعى الآيات إلى تسليته وتعزيته.

- فضلها:

سور هذا الجزء من المفصَّل الذي فضل به النبي ﷺ على سائر الأنبياء، فعن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلت بالمفصَّل"(١)، كما ورد أنَّ بعضها من السور النظائر التي كان يقرأ بها النبي ﷺ في صلاة الليل(٢).

كما ورد أنه ﷺ كان يقرأ بالطور في صلاة المغرب(٣)، وأنَّ الرحمن تدعو إلى الإكثار من حمد الله ﷻ(٤)، كما روي أنَّ الواقعة من السور التي شيبت الرسول ﷺ، وأنه كان يقرأ بها في

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده: ١٣٦، وأحمد في مسنده: ١٠٧/٤، وأبو عبيدة في فضائل القرآن: ١١٩.
(٢) أخرجه البخاري: ٢٥٥/٢، ومسلم: ٥٦٣/١.
(١) أخرجه البخاري: ٦٠٣/٨، ومسلم: ٣٣٨/١.
(٢) أخرجه الترمذي: ٣٧٢/٥.

صلاة الفجر[١]، وأنَّ الحديد من المسبحات التي كان يقرأها ﷺ كل ليلة[٢].

- ترتيبها وعدد آياتها:

لعل الجدول التالي يوضح ترتيب سور هذا الجزء، وعدد آيات كل منها، اعتماداً على القول الذي عليه جمهور المفسرين[٣]:

السورة	بعد	قبل	ترتيبها نزولا	ترتيبها في المصحف العثماني	عدد آياتها
الذاريات	الأحقاف	الغاشية	٦٦	٥١	٦٠
الطور	نوح	المؤمنون	٧٥	٥٢	٤٩
النجم	الإخلاص	عبس	٢٣	٥٣	٦٢
القمر	الطارق	ص	٣٧	٥٤	٥٥
الرحمن	الفرقان	فاطر	٤٣	٥٥	٧٨
الواقعة	طه	الشعراء	٤٦	٥٦	٩٦

(٣) الأول أخرجه الترمذي: ٣٧٥/٥، والثاني أخرجه أحمد في مسنده: ١٠٤/٥.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ١٢٨/٤، وأبو داود: ٣١٥/٤.
(٥) انظر: الإتقان: ٦٩/١، التحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦، ٣٥/٢٧، ٨٨، ١٦٥، ٢٢٨، ٢٨٠، ٣٥٤.

الحديد	الزلزلة	محمد	٩٥	٥٧	٢٩

الفصل الأول:

جماليات التناسب بين السور

المبحث الأول: جماليات التناسب بين خاتمة السورة ومطلع ما بعدها

من وجوه المناسبات بين سور القرآن الكريم التناسب بين خاتمة السورة ومطلع ما بعدها، حيث يرى المتأمل الذي يطيل النظر في خواتيم السور مدى الارتباط الوثيق بينها وبين مطالع السور التالية، مما يدل أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العظيم، إذ جاءت سوره بهذا النظام الدقيق، وكأنها سلسلة تتصل حلقاتها أقوى اتصال من كل وجه.

والحق أنَّ هذا الوجه من المناسبات أغفله معظم العلماء والمفسرين، فلم يشيروا إليه، إما لعدم قناعتهم به، أو لخفاء أسراره عليهم، إلا أنَّ بعضهم توقف عنده، واحتفى به، وأشار إلى أهميته، وأدرك شيئا من جمالياته.

ولعل الزركشي من أبرز العلماء الذين أشاروا إلى هذا النوع من المناسبات، إذ أكد على إعجاز القرآن البلاغي من هذا الوجه، ونبَّه على تفاوت مستويات وضوحه وظهوره، يقول: "وإذا اعتبرتَ افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى"(١).

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣٨/١.

ولا يكتفي صاحب البرهان بهذا التنظير، بل يورد نماذج تطبيقية تؤكد هذا النوع من المناسبات، "كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صدق الله العظيم بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ (الزمر: ٧٥)، وكافتتاح سورة فاطر بالحمد أيضا، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿ٱلۡبَقَرَة ءَالِ عِمۡرَٰنَ ٱلنِّسَآء ٱلۡمَآئِدَة ٱلۡأَنۡعَٰم ٱلۡأَعۡرَاف ٱلۡأَنفَال ٱلتَّوۡبَة يُونُس هُود﴾ (سبأ: ٥٤)، وكما قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿بِسۡمِ﴾ (الأنعام: ٤٥)، وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به، وكافتتاح البقرة بقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١، ٢)، إشارة إلى (الصراط) في قوله ﴿قَالَ تَعَالَىٰ:﴾ (الفاتحة: ٦)، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب... وتأمل ارتباط سورة (لإيلاف قريش) بسورة الفيل، حتى قال الأخفش: اتصالها بها من باب قوله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾﴿﴾ (القصص: ٨)"[1]، ومع وجازة هذه الإشارات إلا أنه يُحسب للزركشي هذا الوقوف المهم، كما يُحسب له أنه فتح الباب لمن

(١) المرجع السابق: ٣٨/١، وانظر: الإتقان: ٣٨٣/٣.

بعده من العلماء لمحاولة استكناه هذا الجانب الدقيق من جماليات التناسب القرآني.

وسأقف في هذا المبحث مع خواتيم سور هذا الجزء الكريم، متأملاً في صلتها بمطالع السور التالية لها، ساعياً إلى استكناه الجماليات التي تنتجها هذه الصلات، ومحاولا أن أكشف عن شيء من أسرار التناسب فيما بينها، مدركاً بأنَّ استجلاء جماليات القرآن الكريم لا يمكن أن تظهر إلا بإطالة النظر وزيادة التأمل والتدبر.

بين خاتمة الذاريات ومطلع الطور:

إن المتأمل في الآيات التي خُتمت بها سورة الذاريات يلحظ مدى مناسبتها الوثيقة مع أوائل سورة الطور، ولعلي أستحضر خاتمة الأولى ومطلع الثانية حتى يمكن للقارئ أن يدرك جماليات هذا التناسب، فقد خُتمت الذاريات بقوله ﷻ: ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَةِ الأَنْعَامِ الأَعْرَافِ الأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الحِجْرِ النَّحْلِ الإِسْرَاءِ﴾، بينما افتُتحت الطور بقوله ﷻ: ﴿الكَهْفِ مَرْيَمَ طٰهٰ الأَنْبِيَاءِ الحَجِّ المُؤْمِنُونَ النُّورِ الفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ القَصَصِ العَنْكَبُوتِ الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الأَحْزَابِ سَبَإٍ فَاطِرٍ يسٓ الصَّافَّاتِ صٓ الزُّمَرِ غَافِرٍ فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُفِ الدُّخَانِ الجَاثِيَةِ﴾.

وأول ما يمكن ملاحظته من صلة، وأعم ما يمكن تلمسه من تناسب، هو ذلك الجو المخيف الذي يفيض وعيدا، وينضح تهديدا، ففي خاتمة الذاريات يؤكد القرآن الكريم على أنَّ

المشـركين الـذين ظلمـوا أنفسـهم حـين كفـروا بـدعوة النبـي ﷺ سينالهم نصيبٌ وافرٌ من العذاب كما نـال الأمم السابقة الـذين حكـى عنهم القرآن فـي هذه السورة، إذ وقفوا من دعوة نبيهم الموقف نفسـه، وأنهم سينالون جزاءهم المستحق، فلا يطلبـوا التعجيل به، إشارةً إلى قولهم قبلُ في أكثر من سورة: ﴿العلق القدر البينة الزلزلة العاديات القارعة التكاثر﴾.

ويبلغ التخويف ذروتـه مع آخر آيـة، حيث يتوعَّدهم القرآن بالويل والثبور، وسوء الحال وبشاعة المآل، الذي سيلقونه في ذلك اليوم الذي أوُعِدوا بأنه واقعٌ بهم لا محالة، "والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم"[١]، واختلف في اليوم المقصود، فقيل: هو يوم القيامة، وقيل: بل يوم بدر الذي استأصل الله ﷻ فيه شوكتهم، ورُجِّح الثاني لإضافة ضميرهم إليه، بينما يوم القيامة عام لكفار الأمم كلهم[٢]، ولا أرى مانعاً من الجمع بينهما، يقول القرطبي: "فنزل بهم يوم بدر ما حقَّق به وعده، وعجَّل بهم انتقامه، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم، والخزي القائم، الذي لا انقطاع له"[٣]، ويقول ابن عرفة عن

(١) التحرير والتنوير: ٣٢/٢٧.
(٢) انظر: لباب التأويل: ١٩٧/٤، مدارك التنزيل: ٣٨١/٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٥٧/١٧.

هذا اليوم: "هو واحدٌ بالنوع، فصدق على كلِّ ما فسَّره به المفسرون"[1]، ومهما يكن فإني أرى أنَّ عدم الكشف عن ماهية هذا اليوم مما يزيد هذا الختام تهويلا، ويضيف إليه تخويفا، فيبقى الكافر الظالم مضطرباً حائراً لا يدري متى سينزل به الهلاك، ولا يعرف متى سيحلُّ يومه المشؤوم.

أما سورة الطور فواضحٌ ما في مطلعها من غضبةٍ إلهية، ووعيدٍ حقيقي، وتخويفٍ صريح، وتهديدٍ لا مرية فيه ولا جدال، ولا أدلَّ على ذلك من هذه الأقسام المتوالية على وقوع عذاب الله ﷻ، مع التأكيد على أنه لا يمكن دفعه، حتى ييأس الكافر من هذا الاحتمال، فيزيد فزعه ويشتد خوفه، وزاد من رهبة جو المطلع إيثار هذه الأمور المقسم عليها، ففي "تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها من أمور عظام، تنبئ عن عظم قدرة الله، وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها"[2]، بل إنَّ هذا الجوَّ بدأ يزداد رهبة ورعبا كلما تقدَّمت الآيات، وذلك حين وصفت بعض مشاهد يوم القيامة، وما يحدث في السماء والجبال من تحولات كونية تُذهل المرضعة عما أرضعت.

---

(٤) تفسير ابن عرفة: ٧٥/٤.
(١) روح البيان: ١٨٧/٩.

إذن فخاتمة الذاريات تنسجم مع فاتحة الطور وتتناغم معها في سيطرة هذا الجو المخيف المرعب، والسياق التهديدي المهول، وهو ما أجمله الألوسي حين قال عن سورة الطور: "ومناسبة أولها لآخر ما قبلها اشتمال كلٍّ على الوعيد"[١]، ومثله ما قاله الطبرسي: "لما ختم الله سورة الذاريات بالوعيد، افتتح هذه السورة بوقوع الوعيد"[٢].

وحين يقترب المتأمل أكثر من تفاصيل هذا التناسب سيلحظ مزيداً من الوشائج والصلات التي تربط بين آخر هذه وأول تلك، فقد رأى بعضهم أنَّ العلاقة بين المشهدين علاقة المقسَم به بالمقسَم عليه، يقول النيسابوري: "لما ختم السورة المتقدمة بوقوع اليوم الموعود أقسم على ذلك بالطور"[٣]، وفي ذلك تحقيق لوقوعه، وتأكيد على شدة انتقامه ﷻ، في إشارة صريحة إلى عظم الجرم الذي صدر عن المعاقبين، يقول البقاعي: "لما خُتمت الذاريات بتحقيق الوعيد، افتُتحت هذه بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد"[٤]، ثم إنَّ العذاب الواقع المقسَم عليه

(٢) روح المعاني: ٢٧/١٤.
(٣) مجمع البيان: ٢٠٧/٩.
(٤) غرائب القرآن: ١٩٣/٦، وانظر: البحر المديد: ٤٨٥/٥، التفسير المنير: ٥٣/٢٧.
(١) نظم الدرر: ١/١٩.

بالطور يؤكد استحقاق الذَّنوب للظالمين الذي أقرَّه آخر الذاريات(١).

ثم تدبر في (الويلات) التي تربط بين المشهدين، تلك التي أفصحتْ بوضوح عن قوة التخويف وشدة الترهيب، وما بينهما من وعدٍ صريحٍ بالعذاب وإخبارٍ أكيدٍ عن وقوعه، وقد تنبه الرازي إلى هذه الوشائج فذكر أنَّ "أول هذه السورة مناسبٌ لآخر ما قبلها؛ لأنَّ في آخرها قوله تعالى: ﴿يونس هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل﴾ ، وهذه السورة في أولها: ﴿الرحمن الواقعة الحديد﴾ ، وفي آخر تلك السورة قال: ﴿سورة الفاتحة البقرة آل عمران﴾ ؛ إشارةً إلى العذاب، وقال هَهُنَا: ﴿يس الصافات ص الزمر﴾ "(٢).

ومن صور الانسجام بين الخاتمة والمطلع تلك الأوصاف التي أطلقها القرآن على المتوعَّدين مستحقي العقاب، فقد وُصفوا في الذاريات بالظلم أولاً، ثم بالكفر ثانياً، ثم وصفوا في الطور بالتكذيب ثالثاً، ثم باللعب رابعاً، وكأنَّ القرآن أراد أن يؤكد من ذلك أحقيتهم بهذه الغضبة الإلهية، واستحقاقهم للعذاب الواقع، إذ قابل المبالغة في طغيانهم بالمبالغة في تأكيد العذاب وتكراره والإقسام عليه.

بين خاتمة الطور ومطلع النجم:

---

(٢) انظر: البحر المحيط: ٥٦٨/٩.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٩٨/٢٨، وانظر: اللباب: ١١٣/١٨.

تظهر للمتأمل وجوهٌ عدة يبرز من خلالها التناسب بين خاتمة الطور ومطلع النجم، والترابط الوثيق الذي يكشف عن شيء من بلاغة القرآن الكريم، ويفصح عن إعجازه في نظام سوره وترتيبها، ويؤكد أنَّ هذا الترتيب الذي انتظم سوره وآياته لا يمكن أن يكون باجتهاد بشري، بل بوحي إلهي وإعجاز رباني. يقول المولى ﷻ في خاتمة الطور: ﴿الانفطار المطففين الانشقاق البروج الطارق الأعلى الغاشية الفجر البلد الشمس الليل الضحى الشرح التين العلق القدر البينة الزلزلة﴾ ، ويقول ﷻ في مطلع النجم: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴾﴾.

وأول ما يمكن ملاحظته بين هذه الخاتمة وذلك المطلع التناسب اللفظي في ذكر النجم، مجموعاً في الأولى بوصف إدبارها زماناً للتسبيح المأمور به، ومفرداً في الثانية بوصفه مقسماً به على عدم ضلال الرسول ﷺ أو غوايته، إذ أشعر إيثار النجم هنا وهناك بتلاحمٍ بين السورتين، وأسهم في عقد صلات وثيقة بينهما.

وقد أشار إلى هذا التناسب اللفظي كثيرٌ من العلماء والمفسرين، يقول الرازي: "أول هذه السورة مناسبٌ لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلأنَّ ختم الطور بالنجم، وافتتاح

هذه بالنجم مع واو القسم"[١]، ويقول النيسابوري: "لما ختم السورة المتقدمة بالنجوم خص الإقسام في أول هذه السورة بالنجم"[٢]، ويقول الألوسي: "وهي شديدة المناسبة لما قبلها؛ فإنَّ الطور خُتمت بقوله تعالى: (إدبار النجوم)، وافتتحت هذه بقوله سبحانه: (والنجم)"[٣]، وإلى هذه المناسبة نفسها أشار غيرهم من المعاصرين[٤].

وإذا كان المفسرون قد اكتفوا في كشفهم عن هذه المناسبة بذكر النجم والنجوم فإنهم لم يقفوا عند القيود التي جاءت معها، ولم ينظروا في السياق الذي وردت فيه، ولو فعلوا لرأوا مزيدا من التناسب والتلاحم، ففي الطور ذكر إدبار النجوم، والمقصود سقوط طوالعها التي تطلع، إذ هي تسقط في جهة المغرب عند الفجر إذا أضاء عليها ابتداء ظهور شعاع الشمس[٥]، وهو وقت السحر المأمور فيه التسبيح، وهناك في النجم قيده بـ(إذا هوى)، وهو السقوط أو الانتقال من مكان إلى مكان، ففي كل من المشهدين حركة لهذا الكوكب، ما بين إدبار وهوي، وهو ما يزيد من التناسب والانسجام بين السورتين.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣١/٢٨.
(٢) غرائب القرآن: ١٩٨/٦.
(٣) روح المعاني: ٤٤/١٤.
(٤) انظر: حدائق الروح: ١٠٠/٢٨، تفسير المراغي: ٤٢/٢٧، التفسير المنير: ٩٢/٢٧، جواهر البيان: ١٠٨.
(١) انظر: التحرير والتنوير: ٨٦/٢٧.

ومن وجوه التناسب أيضاً أنَّ مطلع النجم جاء كالردِّ المؤكَّد والحجة الداحضة والجواب المقسم عليه على ما ورد على ألسنة المشركين في ختام الطور من دعاوى باطلة واتهامات كاذبة للرسول ﷺ بأنه تقوَّل القرآن على ربه ﷻ، وأنه نسبه إليه كلاماً لم يقله، وذلك في قوله ﷻ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صدق الله العظيم﴾، أو بأنه كاهن أو مجنون أو شاعر، وذلك في قوله ﷻ: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فافتتحت السورة التالية بقسمٍ إلهي على أنَّ النبي ﷺ صادقٌ في نقل هذا الوحي، لم يكن يوماً ضالاً أو غاويا، ولم ينطق عن هوى في نفسه، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

وقد أفصح عن هذه المناسبة أبو حيان الذي استعان بسبب نزول السورة للكشف عن جماليات هذه المناسبة، فذكر أنَّ "مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه قال: (أم يقولون تقوَّله)، أي اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر وقالوا: هو كاهن ومجنون، فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضلَّ، وأنَّ ما يأتي به هو وحيٌ من الله، وهي أول سورة أعلن رسول الله ﷺ بها في الحرم، والمشركون يستمعون، فيها سجد، وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب، فإنه رفع حفنة من

تراب إلى جبهته وقال: يكفي هذا، وسبب نزولها قول المشركين أنَّ محمداً ﷺ يختلق القرآن"[1].

والتفت البقاعي إلى مناسبةٍ أخرى قريبةٍ من هذه، غير أنه يستثمر في بيانها تخصيص النجم بالإقسام على صدق النبي ﷺ، فيقول: "ولما خُتمت الطور بأمره ﷺ بالتسبيح والتحميد... وذاك بعد تقسيمهم القول في النبي ﷺ بأنه كاهنٌ وساحرٌ ومجنون، وكان لذلك تعلُّقٌ بالشياطين، وكانت الشياطين مباينةً للقرآن بختلها وبمنعها بالرجوم من النجوم كما بيَّن آخر الشعراء، افتُتحت هذه بالحثِّ على الاهتداء بهديه، والاستدلال بدله، واتباع أثره، ولما كان من ذلك تسبيحه بالحمد في إدبار النجوم أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك... مع ما فيه من عجيب الصنع الدال على وحدانية مبدعه من زينة السماء التي فيها ما توعدون، والحراسة من المردة حفظاً لنجوم الكتاب، والاهتداء به في الدين والدنيا، وغير ذلك من الحكم التي يعرفها الحكماء"[2].

ولعل من وجوه التناسب أيضا ذلك الجو الذي يفيض طمأنينة وسكوناً وهدوءاً ورضاً للنبي ﷺ، حيث أمره المولى ﷻ في آخر الطور بالصبر لحكمه، وأكَّد له أنه تحت رعايته الدائمة وعنايته

---

(١) البحر المحيط: ٩/١٠، وانظر: روح المعاني: ٤٤/١٤، جواهر البيان: ١٠٨.

(١) نظم الدرر: ٤٠/١٩، ٤١.

الفائقة، وذلك بعد أن وصف القرآن شدة إعراضهم، وعدَّد اتهاماتهم لنبيهم، ثم نجد في أول النجم استمراراً لهذا الجو، إذ يقسم ﷻ على أنَّ نبيه ليس ضالا ولا غاويا، وأنه ما ينطق إلا من وحي من ربه، وأن الذي علمه شديد القوى؛ دفاعاً عنه ﷺ، وتأكيداً لصدقه، ووعدا بنصرته، وكل ذلك مما يبعث في قلبه الطمأنينة والسكون.

بين خاتمة النجم ومطلع القمر:

يقول المولى ﷻ في خاتمة النجم: ﴿المَائِدَة الأَنْعَام الأَعْرَاف الأَنْفَال التَّوْبَة يُونُس هُود يُوسُف الرَّعْد إِبْرَاهِيم الحِجْر النَّحْل الإِسْرَاء الكَهْف مَرْيَم طٰهٰ الأَنْبِيَاء الحَجّ المُؤْمِنُون النُّور الفُرْقَان الشُّعَرَاء النَّمْل القَصَص العَنْكَبُوت الرُّوم لُقْمَان﴾ (النجم: ٥٧-٦٢) ويقول في مطلع القمر: ﴿السَّجْدَة الأَحْزَاب سَبَإ فَاطِر يٰسٓ الصَّافَّات صٓ الزُّمَر غَافِر فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُف الدُّخَان الجَاثِيَة الأَحْقَاف مُحَمَّد الفَتْح الحُجُرَات قٓ الذَّارِيَات الطُّور﴾ (القمر: ١-٣).

والمتأمل في المشهدين يرى الصلة الوثيقة بينهما، ويدرك الارتباط الواضح الذي يشعرك بأن السورة الأولى لم تنته بعد، وذلك لاستمرار الجو، واتحاد الموضوع، وانسجام الفكرة، وهو مظهر من مظاهر إعجاز هذا القرآن العظيم.

ففي خاتمة النجم كان القرآن الكريم يؤكد قرب مجيء القيامة، واختصاص المولى ﷻ بعلم وقت وقوعها، منكراً على المشركين تعجبهم واستبعادهم لما أخبر به نبيهم، ثم جاء مطلع القمر ليؤكد من جديد قرب مجيء القيامة، ويصرح به وينص

عليه، فانسجم الجو الذي يفيض تهديدا ووعيدا، ويمتلئ إنذاراً وتخويفاً، ويؤكد الأصل الثالث من الأصول الإيمانية التي كان الرسول ﷺ حريصاً على أن يؤمن بها قومه بعد الإيمان بالله وبأنه رسول من عنده، وهو إثبات اليوم الآخر وصحة وقوعه، وهي الأصول الثلاثة التي طالما أكدت عليها السور المكية بمختلف الأساليب وبشتى المعاني.

وقد أشار إلى هذه المناسبة اللطيفة معظم المفسرين المهتمين بهذا النوع من التناسب، فهذا أبو حيان يقول في مفتتح حديثه عن سورة القمر: "ومناسبة أولها لآخر السورة التي قبلها ظاهرة، فقد قال سبحانه هناك: (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ)، وهنا: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)"[1]، فاقتراب يوم القيامة هو الرابط الوثيق والصلة الواضحة بين المشهدين، بل إنَّ المتأمل في مطلع القمر يلحظ فيه ما يزيد في تأكيد قرب الوقوع، ويدعم من صدقه وصحته، من خلال الكشف عن دليل قاطع وبرهان ساطع على هذا البلاغ المخيف، وهو انشقاق القمر الذي ثبت وقوعه في عهده ﷺ[2] حين سأله المشركون دليلاً على صدق ما يدعو إليه.

وهذا ما تنبه إليه النيسابوري الذي يقول في بداية تفسيره لسورة القمر: "أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة:

---

(١) البحر المحيط: ٣٣/١٠، وانظر: روح المعاني: ٧٣/١٤، البحر المديد: ٥٢١/٥.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤٧٢/٧.

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) إلا أنه ذكر هاهنا دليلاً على الاقتراب وهو قوله: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) في الصحيحين عن أنس أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشقَّ القمر مرتين. وعن ابن عباس: انفلق فلقتين؛ فلقةٌ ذهبتْ، وفلقةٌ بقيتْ"[١]، ويقول الرازي: "أول السورة مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله: (أزفت الآزفة)، فكأنه أعاد ذلك مع الدليل، وقال: قلتُ: أزفت الآزفة وهو حق"[٢]، فكانت فاتحة القمر كالدليل والتأكيد والتصديق لما جاء في ختام الطور.

ولم يغفل البقاعي عن هذه المناسبة، بل سعى إلى الكشف عنها بالتفصيل، حيث يقول عن فاتحة القمر: "لما ختمت النجم بالتهديد باقتراب القيامة التي ينكرونها بعد أن فتحها بالإقسام بالنجم.. الذي هو أعم من القمر وغيره بتسييره طلوعاً وأفولاً وصعوداً وهبوطاً، افتتح هذه بذلك، مع الدلالة عليه عقلاً وسمعاً في التأثير في أعظم آيات الله وغير ذلك؛ ليقطع العباد عن الفساد، ويستعدوا لها قبل مجيئها أحسن استعداد"[٣].

ومن وجوه المناسبة الملحوظة بين المشهدين ذلك الموقف الشنيع الذي وقفه المشركون من دعوة نبيهم ﷺ، ففي النجم

---

(٢) غرائب القرآن: ٢١٦/٦، وانظر: التفسير المنير: ١٤٣/٢٧، جواهر البيان: ١٠٩.
(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨٨/٢٩، وانظر: اللباب: ٢٢٩/١٨.
(٤) نظم الدرر: ٨٧/١٩.

يعجبون ويشككون وينكرون ويضحكون ويلعبون ويستهزؤون، وفي القمر أعرضوا وقالوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم، وفي هذا تأكيدٌ على إعراضهم، وتيئيسٌ من إيمانهم، كما أنَّ في تشابه المشهدين في هذه الفكرة إشارةً إلى أنه لم ينفع معهم وعيد ولا تهديد، فقد أُنذروا بقرب وقوع البعث، وأُكِّد لهم ذلك بدليلٍ واضحٍ شاهدوه بأم أعينهم، لكنه الكفر الذي يعمي العيون، والكبر الذي يصم الآذان.

بين خاتمة القمر ومطلع الرحمن:

لم تكن سورتا القمر والرحمن بدعاً من هذه الظاهرة البلاغية العجيبة التي تكشف عن إعجاز القرآن، وبلوغه الغاية في الفصاحة والبيان، ودقة النظم، وجمال الترتيب، إذ يرى المتأمل في ختام الأولى ومطلع الثانية اتصالاً بديعاً، وتناسباً وثيقاً، يدل دلالة جلية على أنَّ هذا الترتيب العجيب لا يمكن أن يكون باجتهاد بشري.

وإن شئت فتأمل -للدلالة على ذلك- خاتمة القمر التي جاء فيها: ﴿﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾﴾ ، ثم انظر في مطلع الرحمن حين يقول المولى ﷻ: ﴿﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾﴾ ، ولعلي أحاول هنا استكناه شيء من الجماليات التي تربط بين هذين المشهدين.

وأول ما يمكن ملاحظته من وجوه المناسبة الاتفاق في الحديث عن أسماء الله وصفاته، وهو ما منح الجو في المشهدين

اتحاداً وتماثلا، مع اختلاف الصفات في استدعائها الرهبة أو الرغبة، غير أنها جميعاً تُشعِرك بجلاله وجماله ﷻ، وتضعك في جوٍّ من القوة والعظمة، والقدرة المطلقة والهيمنة اللانهائية.

وقد حاول البقاعي أن يكشف عن صلة هذه الصفات ببعضها، وكيف أنها جاءت على هذا الترتيب، فيقول: "ولما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين، وذلك من آثار الملك"(١).

ثم إنَّ مجيء الرحمة بعد الملك والاقتدار اللذين ذكرا في سياق ذكر جزاء المؤمنين بدخولهم الجنة يوحي بأنَّ هذا الجزاء لم يكن لينالوه بعملهم، بل برحمته ﷻ، وقد تنبه الغماري إلى هذه الدلالة اللطيفة في ربطه بين هذه الأسماء، فقال في سياق حديثه عن سورة الرحمن: "مناسبتها لما قبلها: أنَّ تلك السورة ختمت باسمين من أسماء الله الحسنى... ففتحت هذه السورة بذكر اسمه (الرحمن)، إشارة إلى أن رحمته عمت الدنيا والآخرة، وأن أهل الجنة إنما دخلوها ونالوا تلك الحظوة برحمته، وفي الحديث الصحيح: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله

(١) نظم الدرر: ١٩/١٤٠.

برحمةٍ منه)[1]، وبها تعلَّموا القرآن ووفقوا للعمل به: (الرحمن، علَّم القرآن)"[2].

ثم إنَّ في توالي هذه الصفات على هذا النسق جرياً على سنن القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب، والجمع بين الوعد والوعيد، فصفتا الملك والقدرة يحملان المرء على الرهبة والخوف والحذر من بطشه وعقابه، أما صفة الرحمة فتبعث على الرغبة في الفوز بمرضاته، والطمع في نيل ثوابه.

ولهذا يمكن القول بأنَّ سورة القمر خُتمت ببيان صفتين لله ﷻ يدلان على الهيبة والرهبة والعظمة وهما (المليك المقتدر) أي ملكٌ عظيم الملك، قادرٌ عظيمُ القدرة، وابتُدئت هذه السورة بصفةٍ أخرى بجوار ذلك، وهي صفة (الرحمن)، وبيان مظاهر رحمته وفضله ونعمه على الإنسان وفي الكون كله سمائه وأرضه، فهو سبحانه عزيزٌ شديدٌ مقتدرٌ بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمنٌ منعمٌ غافرٌ للأبرار[3].

ووجهٌ آخر يمكن ملاحظته في تناسب هذه الصفات، وهو أنَّ آخرها كالدليل على ما قبلها؛ لأنَّ الرحمة وما تبعها من أوصاف له ﷻ من خلق الإنسان وتعليمه القرآن والبيان من آثار ملكه، ودليل على قدرته، ولعل هذا ما قصده أبو حيان حين

---

(٢) رواه البخاري: ١٢١/٧.
(٣) جواهر البيان: ١١٠.
(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٣٣٥/٢٩، التفسير المنير: ١٩٣/٢٧.

قال: "ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر مقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر، ذكر شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة، ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب، إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز، ولما ذكر قوله: (عند مليك مقتدر)، فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير، فكأنه قيل: مَن المتصف بذلك؟ فقال: الرحمن"[1]، وواضحٌ ما يشير إليه صاحب البحر في آخر كلامه من علاقةٍ أخرى، هي كالسؤال والجواب بين هذه الصفات، كما تفصح هذه الإشارة عن الأسرار البلاغية لتنكير (مليك مقتدر)، وتعريف (الرحمن)، وهي لفتات بيانية تزيد من تناسب هذه الأسماء الكريمة، لتضيف إلى ترابط خاتمة القمر ومطلع الرحمن مزيداً من الصلات والوشائج.

أضف إلى كل هذا ذلك الجو الذي يفيض رضا وعطاء، ويمتد كرماً وآلاء، ويفصح عن مدى سخائه وفيض عطائه، ففي خاتمة القمر تصريح بجزاء المتقين، فهم ينعمون بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، في دار كرامته ﷻ ورضوانه وفضله، وامتنانه وجُوده وإحسانه، وفي مطلع الرحمن تعداد لنعمه ﷻ،

(١) البحر المحيط: ٥٤/١٠، وانظر: مصاعد النظر: ٤٥/٣، حدائق الروح: ٢٦٣/٢٨.

وتذكير بآلائه وأفضاله على الإنسان، وهو ملمح من ملامح تناسق المشهدين وتناغمهما.

وقد زاد من تناسق هذا الجو مجيء أسماء الله على هذه الصيغة، يقول صاحب جواهر البيان: "وأيضا فإن الأسماء الثلاثة صيغ تكثير، فمعنى مليك: واسع الملك، ومقتدر: واسع القدرة، والرحمن: واسع الرحمة، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ ما فيه أهل الجنة من نعيم وحظوة لا ينقطع ولا يزول؛ لأنَّ مصدره مَن هو موصوف بتلك الصفات العظيمة"[١].

(٢) جواهر البيان: ١١٠.

بين خاتمة الرحمن ومطلع الواقعة:

بين خاتمة الرحمن ومطلع الواقعة تناسبٌ بديعٌ واتصالٌ وثيق، يدركه المتأمل فيهما، يقول الله ﷻ في خاتمة الرحمن: ﴿﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ سُورَةُ ﴾ ، ويقول المولى ﷻ في مطلع الواقعة: ﴿الفاتحة البقرة آل عمران النساء المائدة الأنعام الأعراف الأنفال التوبة يونس هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل الإسراء الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء النمل القصص ﴾.

ولعل أول ما يمكن تلمسه من مناسبات ووشائج بين مشهد الختام ومشهد الافتتاح جو العظمة والجلال، وسياق الرهبة والعزة والقوة، ومقام الخوف والرجاء، إذ كان آخر الرحمن مستمراً في ذكر صفات أهل الجنة وما لهم من الثواب والجزاء، وخُتم المشهد بتعظيم اسمه ﷻ وإجلاله وإكرامه على ما أفاض به على المؤمنين به من عظيم الفضل وجزيل الامتنان، فأتبع ذلك في افتتاح الواقعة بذكر القيامة وبعض أهوالها؛ ليدل المشهدان على مدى قوته، وعظم أمره، وطلاقة قدرته ﷻ.

وقد تنبه إلى هذه المناسبة اللطيفة صاحب مفاتيح الغيب الذي قال في سياق تفسيره لسورة الواقعة: "وأما تعلق الأول بالآخر ففي آخر تلك السورة إشارةٌ إلى الصفات من باب النفي والإثبات، وفي أول هذه السورة إلى القيامة وإلى ما فيها من المثوبات والعقوبات، وكل واحد منهما يدل على علو اسمه

وعظمة شأنه، وكمال قدرته، وعز سلطانه"[1]، وهي إشارةٌ لطيفةٌ إلى تناسب المشهدين في هذا الجو العظيم الجليل.

ثم إنَّ الإشارة إلى تنزيه المولى ﷻ في خاتمة الرحمن، ووصفه بذي الجلال والإكرام يدل على أنَّ من اتصف بهذه الصفات حكيمٌ عدلٌ يجازي كلا بما يستحق، فناسب أن يشير مطلع الواقعة -تأكيداً لاتصافه بذلك- إلى انقسام الناس يوم القيامة، كل بحسب عمله في الدنيا، وإلى جزاء كل واحد منهم بالتفصيل.

ولعل هذا ما قصده البقاعي في مطلع حديثه عن الواقعة، إذ بيَّن أنَّ "مقصودها شرح أحوال الأقسام الثلاثة المذكورة في الرحمن للأولياء من السابقين واللاحقين والأعداء المشاققين من المصارحين والمنافقين من الثقلين؛ للدلالة على تمام القدرة بالفعل بالاختيار الذي دلَّ عليه آخر الرحمن بإثبات الكمال، ودلَّ عليه آخر هذه بالتنزيه بالنفي لكلِّ شيءٍ به نقص، ثم الإثبات بوصف العظمة بجميع الكمال من الجمال والجلال، ولو استوى الناس لم يكن ذلك من بليغ الحكمة، فإن استواءهم يكون شبهة لأهل الطبيعة"[2]، وهذا من تمام عدله وصدقه، ومن كمال قوته وقدرته.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٣٨٤/٢٩.

(١) نظم الدرر: ١٩٦/١٩، مصاعد النظر: ٥٢/٣.

ويؤكد البقاعي هذه الفكرة مرة أخرى بقوله: "لما صنَّف سبحانه الناس في تلك -أي الرحمن- إلى ثلاثة أصناف: مجرمين وسابقين ولاحقين، وختم بعلة ذلك وهو أنه ذو الانتقام والإكرام، شرح أحوالهم في هذه السورة -أي الواقعة- وبيَّن الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في الرحمن غاية الظهور"(١).

ويمكن للمتأمل أن يلحظ مناسبةً أخرى بين المشهدين، خاصَّة إذا أمعن النظر إلى سياق كلٍّ منهما بنظرةٍ أكثر شمولاً واتساعا، حيث كان السياق في الرحمن يصف جزاء المؤمنين وما أعدَّ لهم في الجنة من ثواب، ثم جاء السياق في الواقعة ليكشف عن انقسام الناس إذا قامت القيامة إلى ثلاثة أقسام، وكان من المناسب أن يبدأ بالسابقين المقربين ثم بأصحاب اليمين؛ لأنَّ الذهن ما زال يستحضر فيض الكرم وألوان النعيم التي جاء تفصيلها في خاتمة الرحمن، ليأتي هذا المطلع مؤكداً ما يستحقون من ثواب، ومذكراً بجزيل عطائه ﷻ وفيض كرمه وعظيم هباته لعباده المؤمنين.

بين خاتمة الواقعة ومطلع الحديد:

سورة الحديد هي آخر سورة في هذا الجزء، والمتأمل في آياتها يرى اختلافاً واضحاً في طريقة نظمها وطبيعة

(١) نظم الدرر: ١٩٦/١٩.

موضوعاتها ومستوى طول آياتها، مقارنةً ببقية سور هذا الجزء، مما يشعر بغلبة الجو المدني عليها، ومع هذا فإنَّ المتأمل في مطلعها يلحظ صلةً وثيقةً وتناسباً بديعاً مع خاتمة الواقعة، مما يؤكد دوماً أنَّ مجيء سور القرآن على هذا الترتيب معجزٌ لمن تأمل في دقته وحسن تنظيمه.

يقول المولى ﷻ في ختام الواقعة بعد ما فرغ السياق من بيان مآلات الأقسام الثلاثة: ﴿فَطِر يسن الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية﴾ ويقول ﷻ في مطلع الحديد: ﴿الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة﴾ ، ويستمر السياق في بيان بعض صفاته التي تكشف عن بعض ملامح قوته وقدرته –عز وجل-.

ونظرةٌ واحدةٌ في المشهدين تفصح لك عن وجه جلي من وجوه المناسبة، فالمشهدان يشتركان في فكرة التسبيح، ويتشابهان في موضوع تنزيهه ﷻ، وهي مناسبة أشار إليها جل العلماء الذين اهتموا بهذا النوع من المناسبات، يقول أبو حيان عن سورة الحديد: "مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة؛ لأنه تعالى أمر بالتسبيح، ثم أخبر أنَّ التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض"(١).

---

(١) البحر المحيط: ١٠/١٠٠.

وحاول السيوطي أن يزيد في بيان هذه الصلة، وأن يكشف بدقة أكبر عن علاقة الحديد بالواقعة وموقعها منها، مفيداً من فكرة التسبيح، فقال: "وجه اتصالها بالواقعة: أنها بدأتْ بذكر التسبيح، وتلك خُتمتْ بالأمر به، قلتُ: وتمامه: أنَّ أول الحديد واقعٌ موقع العلة للأمر به، وكأنه قيل: ﴿فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُفُ الدُّخَانُ﴾ ؛ لأنه ﴿الأَحْقَافُ مُحَمَّدٌ الْفَتْحُ الْحُجُرَاتُ قٓ الذَّارِيَاتُ الطُّورُ﴾ "[1].

والحقُّ أنَّ البقاعي قد سبقه في الإشارة إلى هذه المناسبة، فقال: "ولما خُتمتْ الواقعة بالأمر بتنزيهه عمَّا أنكره الكفرة من البعث، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه، وتبيينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان، فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة: (سَبَّحَ)، أي: أوقع التسبيح بدلالة الجبلة تعظيماً له سبحانه، وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته"[2].

كما يمكن أن يضاف إلى هذه الإشارات ذلك التناسب الجمالي الذي نلحظه في أسمائه وصفاته ﷻ، فالواقعة تختتم بـ(ربك العظيم)، والحديد تُفتتح بمجموعة من أفعاله وصفاته (العزيز) (الحكيم) (يحيي) (يميت) (قدير) (الأول) (الآخر) (الظاهر) (الباطن) (عليم)، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته ﷻ

(٢) تناسق الدرر: ١٣٨، وانظر: روح المعاني: ١٦٤/١٤.
(١) نظم الدرر: ٢٥١/١٩

التي ذكرت فيما بعد من آيات، وهو ما يمنح المشهدين انسجاماً وتناغماً في الجو الذي أضحى -بوجود هذه الأسماء والصفات- مشحوناً بالرهبة والجلال، وممتلئاً بالعظمة والكبرياء.

وحين ننظر إلى ختام الواقعة بنظرة أوسع يمكن أن نستظهر وجهاً آخر من وجوه المناسبة بين المشهدين، ذلك أنَّ ختامها كان يحكي عن مآلات الخلق يوم القيامة، بعد أن قسَّمهم في بداية السورة إلى ثلاثة أقسام: السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ولا ريب أنَّ هذا يدل على حكمته وعدله ﷻ، ويشير إلى قوته وقدرته ﷻ، فجاء مطلع الحديد ليؤكد ذلك، من خلال تنزيهه وتقديسه، وذكر بعض صفاته الدالة على عزته وقدرته، وحكمته وعظمته، وسيطرته المطلقة على كل شيء، وهو ما يزيد تماسك المشهدين وانسجامهما، إذ جاء الثاني منهما مؤكداً للأول من جهة، ومكملاً له من أخرى.

وهكذا يظهر للمتأمل تلاحم سور هذا الجزء، وشدَّة اتصالها ببعضها، من خلال التناسب الوثيق بين مطلع كل واحدة منها وخاتمة ما قبلها، حتى أخذ بعضها برقاب بعض، وصارت كالسورة الواحدة، كما كشف هذا المبحث عن مناسباتٍ لطيفةٍ وجمالياتٍ بديعةٍ برزت من خلال التأمل بين مشاهد الختام ومشاهد الافتتاح، زادت من وشائج الاتصال، وأضافت إلى انسجامها جمالاً فوق جمال، مما يجعل العاقل المتدبر لا يشك

لحظةً أن هذا الترتيب جاء بوحي منه ﷻ لا مجال فيه لاجتهادٍ بشري.

* * *

المبحث الثاني: جماليات التناسب بين السورة وما قبلها

جاء القرآن الكريم في أبلغ درجة من درجات النظم وأرقاه، إذ لا يمكن أن تجد فيه حرفاً زائداً أو كلمة في غير مكانها، بل نُظم في أحكم عبارة، ورُتِّب بدقة أعجزت الخلق، وما ذاك إلا لأن أسلوبه ونظمه وترتيبه وحيٌ من المولى ﷻ.

ومن وجوه إعجازه مجيء سوره الكريمة على هذا الترتيب الذي وصلنا، إذ يرى المتأمل أنها جاءت على أحسن ترتيب وأجمل تنسيق، ويجد أن كل سورة ملتحمة بما قبلها وبما بعدها أقوى التحام، ومرتبطة بها أوثق ارتباط، مما يؤكد أن ترتيب سوره على هذا النحو ما هو إلا وحي إلهي، ووجه من وجوه إعجازه وبلاغته.

وقد أشار إلى تناسب سور القرآن بعض العلماء، فهذا السيوطي يؤكد أنَّ "كل سورة شارحة لما أُجمل في السورة التي قبلها"[1]، وينقل عن الرازي أنَّ سورة الكوثر كالمقابلة للتي قبلها؛ "لأنَّ السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، أي: الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة (فَصَلِّ)، أي: دُم عليها، وفي مقابلة الرياء: (لِرَبِّكَ)، أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة

(١) تناسق الدرر: ٥٤.

منع الماعون: (وَانْحَرْ)، وأراد به: التصدق بلحوم الأضاحي، قال: فاعتبر هذه المناسبة العجيبة"[1]، إضافة إلى ما أوضحته في التمهيد، ونقلته عن بعض العلماء الذين أشاروا إلى بلاغة ترتيب القرآن بوصف عام، ولا شك أنَّ ترتيب سوره وتواليها يدخل دخولا أوليا في هذه الإشارات.

وإذا كان المبحث السابق يكشف عن نوع خاص من هذا التناسب، وهو علاقة مطلع السورة بخاتمة ما قبلها فإن هذا المبحث سينظر إلى ترتيب السور بصورة أشمل وأعم، حيث سأحاول فيه أن أكشف فيه عن بعض الجماليات التي تربط سور هذا الجزء ببعض، وأفصح فيه عن شيء من الأسرار البلاغية التي استدعت مجيء سوره على هذا الترتيب العجيب، من خلال النظر في موضوع السورة ومقصودها وأفكارها الرئيسة، مبتعداً -هنا وفي الدراسة كلها- عن التكلف في الربط والتحليل قدر الإمكان.

علاقة الطور بالذاريات:

جاءت سورة الطور ثانية في هذا الجزء بعد افتتاحه بسورة الذاريات، والناظر في السورتين وما تضمنتاهما من موضوعات يرى بوضوح عدداً من وجوه التناسب التي وثقت

(١) تناسق الدرر: ١٦٩، وهو مختصر لما قاله الرازي في مفاتيح الغيب: ٣٠٧/٣٢، وانظر: نظم الدرر: ٥٤٧/٨.

الوشائج بينهما، وجعلت مجيء الثانية بعد الأولى في غاية التناسب والانسجام، وسأحاول فيما يأتي أن أشير إلى هذه الوجوه بإيجاز.

فأول ما يُلحظ بين السورتين من تناسب: تشابههما في الموضوع، وتقاربهما في الأفكار، إذ تحدثت السورتان عن توحيد المولى ﷻ، وعن إثبات البعث، وأشارتا إلى أحوال الآخرة، وإثبات رسالة النبي ﷺ وصدق دعوته، كما سعت كل واحدة منهما إلى تفنيد شُبَه المشركين ومعتقداتهم الفاسدة، ولا غرو في ذلك، فالسورتان مكيتان، وهذه الموضوعات من أبرز ما يتناوله هذا النوع من السور، نظراً إلى أهميتها في تأسيس الدين الجديد، واعتماداً على طبيعة المخاطب ونوعية المتلقي.

ومن وجوه التناسب بين السورتين افتتاح كلِّ واحدةٍ منهما بقسم إلهي، بآية من آياته ﷻ الكونية المتعلقة بالمعاش أو بالمعاد، ففي الذاريات أقسم القرآن الكريم بالرياح التي تنفع الناس في معاشهم، وفي الطور أقسم بالجبل الذي أنزلت به التوراة النافعة للناس في معادهم، وهو ما يزيد من الانسجام بين السورتين، ويعزز من تناسب تواليهما.

كما يلحظ المتأمل في بناء السورتين مزيداً من الوشائج التي تربط بينهما، حيث تشابهتا في ترتيب الموضوعات، فالذاريات ابتدأت بوعيد المشركين المكذبين (٧-١٤)، ثم انتقل الحديث فيها إلى ما أُعد للمتقين من نعيم (١٥-٢٣)، ثم عرضت السورة

بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم وما لاقوه منهم من صدود واتهامات تسلية للرسول ﷺ (٢٤-٥٨)، ثم خُتمت السورة بالوعيد الشديد للظالمين المكذبين (٥٩، ٦٠).

وحين تتأمل في الطور تتفاجأ بأنَّ بناءها قريب جداً من هذا، فقد ابتدأت بوصف أهوال يوم القيامة وصولاً إلى وعيد المكذبين وتهديدهم (٧-١٦)، ثم انتقل السياق إلى وصف نعيم المتقين (١٧-٢٨)، ثم عرضت السورة موقف المشركين من دعوة النبي ﷺ وما لاقاه منهم من اتهامات (٢٩-٤٤)، حتى خُتمت السورة بوعيدهم على هذه المواقف الشنيعة، وتسليته ﷺ بالوعد بالرعاية، وأمره بالصبر والتسبيح (٤٥-٤٩).

ومما يتصل بذلك اشتراك السورتين في التأكيد على قضايا متشابهة، كأمره ﷺ بالتذكير، والإعراض عما يقول الجاحدون المنكرون، قال في الذاريات: ﴿قَالَ تَعَالَىٰ:﴾﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَعُوذُ﴾ ، وفي الطور يقول: ﴿الْمَعَارِجِ نُوحٍ الْجِنِّ الْمُزَّمِّلِ الْمُدَّثِّرِ الْقِيَامَةِ الْإِنسَانِ الْمُرْسَلَاتِ النَّبَإِ﴾ ، ويقول: ﴿النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَٰنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ﴾ ، وكالحجاج على التوحيد والبعث، كما في الآيات (٤٧-٤٩) من الذاريات، والآيات (٣٤-٤٣) من الطور، هذا بالإضافة إلى ما أُشير إليه من تناسب خاتمة الأولى مع فاتحة الثانية، وهي مناسباتٌ فنيةٌ وموضوعيةٌ تزيد من اتصال السورتين، بل تجعلهما كالسورة الواحدة.

وقد تنبه بعض المفسرين إلى بعض هذه الوشائج، وأشاروا إلى شيء من تلك الصلات بين السورتين، فهذا الرازي يقول عن الطور: "هذه السورة مناسبةٌ للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم، وبيان الحشر فيهما، وأول هذه السورة مناسبٌ لآخر ما قبلها؛ لأنَّ في آخرها قوله تعالى: (فويل للذين كفروا..)، وهذه السورة في أولها (فويلٌ يومئذٍ للمكذبين)، وفي آخر تلك السورة قال: (فإنَّ للذين ظلموا ذنوبا..) إشارة إلى العذاب، وقال هنا: (إنَّ عذاب ربك لواقع)"[1].

وفي تناسب البناء الفني للسورتين يقول السيوطي عن الطور: "أقول: وجه وضعها بعد الذاريات: تشابههما في المطلع والمقطع؛ فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ)، وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار بقوله في تلك: (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا)، وفي هذه: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا)"[2].

كما يمكن أن يقال إنَّ بين السورتين علاقة التفصيل بعد الإجمال، إذ ذكر القرآن في الذاريات تكذيب المشركين لرسلهم، وردَّ عليهم بإيجاز فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صدق الله﴾ ،

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٩٨/٢٨.
(1) تناسق الدرر: ١٣٣.

والآيات التي بعدها، ثم فصَّل ذلك في الطور ابتداءً من قوله:﴿ المَعَارِجِ نُوحٍ الجِنِّ المُزَّمِّلِ المُدَّثِّرِ القِيَامَةِ الإِنسَانِ المُرْسَلَاتِ النَّبَإِ ﴾ إلى آخر السورة.

ويقف البقاعي عند المناسبة بين السورتين، مضيفاً إليهما سورة ق التي سبقت الذاريات، مؤكداً أنَّ انتظام السور الثلاث بهذا الترتيب في غاية التناسب والانسجام، يقول عن الطور: "ومقصودها: تحقيق وقوع العذاب، الذي هو مضمون الوعيد المقسم على وقوعه في الذاريات، الذي هو مضمون الإنذار المدلول على صدقه في ق، وأنَّ وقوعه أثبت وأمكن من الجبال التي أخبر الصادق بسيرها، وجعل دَكَّ بعضها آية على ذلك، ومن الكتاب في أثبت أوضاعه، لإمكان غسله وحرقه، ومن البيت الذي يمكن عامره وغيره إخرابه، والسقف الذي يمكن رافعه وضعه، والبحر الذي يتمكن من سجره أن يرسله، وقد بان أنَّ اسمها أدلُّ ما يكون على ذلك، بملاحظة القسم وجوابه، حتى بمفردات الألفاظ في خطابه"[1].

ولا يقف التناسب بين السورتين عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى الانسجام الصوتي الذي زاد من تناغمهما، وأضاف إلى تواليهما قيمةً جماليةً أخرى، فعلى مستوى الفواصل نجدهما يتوافقان فيها صوتيا، فقد بُنيت معظم السورتين على الميم أو

(١) نظم الدرر: ١/١٩، وانظر: مصاعد النظر: ٢٨/٣.

النون المتقاربين في المخرج، إضافة إلى اختلاف كلٍّ من السورتين في مشاهد الافتتاح، فمشهد القسم له إيقاعه الخاص، ومشهد جوابه له إيقاعه الخاص أيضا، بل إن هناك تقارباً في عدد آيات هذا الافتتاح، فجاء مشهد القسم في الذاريات في ٤ آيات و٥ في الطور، وجاء مشهد الجواب فيهما في آيتين اثنتين: ﴿الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر﴾ ، ﴿يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية﴾ ، هذا غير اتحاد الفاصلة (لواقع)، وهذا يضيف إلى السورتين مزيداً من التناسق والتناغم، ويجعل مجيئهما على هذا الترتيب في غاية الدقة وبديع النظام.

علاقة النجم بالطور:

تبدو للمتأمل في السورتين مجموعة من الوشائج التي تؤكد الصلة الوثيقة بينهما، مما يجعل مجيء النجم بعد الطور، وانتظامهما بهذا الترتيب بعد السور السابقة في غاية التناسق ومنتهى الانسجام، مما يؤكد للناظر المتدبر أنَّ ترتيب هذا الكتاب الكريم، سوراً وآياتٍ، وجهٌ مهمٌ من وجوه إعجازه، ومظهرٌ بارزٌ من مظاهر بلاغته.

أولى هذه الوشائج ما يراه المتأمل من صلة وثيقة بين أهم موضوع قامت عليه الطور، وأهم فكرة تناولتها النجم، وهي قضية إثبات النبوة، وتأكيد صدقه ﷺ، وهو ما ذكرتُ طرفاً منه في علاقة خاتمة الأولى بمطلع الثانية، حيث أشارت الطور إلى

تكـذيب المشـركين لرسـولهم، وأفصـحت عـن مجموعـة مـن الاتهامـات التـي وجهوهـا إليـه، فـذكروا أنـه كـاهن وشـاعر ومجنون، وأنه يفتري على ربه ﷻ، ويتقوَّل عليه ما لم يقله: ﴿ المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الإنسان المرسلات النبأ النازعات عبس التكوير الانفطار المطففين الانشقاق البروج ﴾ ﴿ الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم بسم الله الرحمن ﴾.

فجاءت سورة النجم بفكرتها وموضوعها الرئيس لتبعث في قلـب النبـي ﷺ الطمأنينـة، وتـدافع عنـه ضـدَّ هـذه الافتـراءات، وتُبطل ما اتهم به من أكاذيب، كما سعت آياتها إلى إثبات صدق نبوته، وتأكيد حقيقة رسالته، فأقسم بالنجم على أنه ما ضل وما غوى، وأن ما جاء به وحي من عنده ﷻ، وهكذا تتوالى الآيات لتتنـاول مجموعـة مـن الأفكـار والموضـوعات التـي تشـترك فـي تأكيد هذه الفكرة الرئيسة.

وعليـه يمكـن القـول إنَّ العلاقـة بـين سـورة الـنجم ومـا قبلهـا علاقة ردٍّ على اتهام، ودحضٍ لافتراء، وتفنيد لأكاذيب، ليتحقَّق الغرض الرئيس من كل هذا، وهو إثبات نبوته ﷺ، وتأكيد صدقه وأمانتـه وحرصـه علـى أمتـه، وهـو أحـد الأصـول الثلاثـة التـي سعت السور المكية إلى تأكيدها وتثبيتها.

ويبسـط الغرنـاطي القـول فـي هـذه المناسـبة، متتبعـاً الأفكـار الجزئية التي اشتملت عليها سورة النجم، وكيف أنها كانت تؤكد فكرتها الرئيسة التي تبطل ما جاء في سورة الطور من اتهامات

وافتراءات بحقه ﷺ، يقول: "لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم: شاعر وساحر ومجنون، إلى ما هزؤوا به مما علموا أنه لا يقوم على ساق، ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح إلى كل ما أمكنه وإن لم يغن عنه، أعقب تعالى ذلك بقسمه على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوَّله وتوهمه ضعفاؤهم فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿﴾ بِسْمِ ﴾ "(١).

ويستمر صاحب البرهان في الكشف عن جماليات هذه المناسبة بين السورتين بما يجليها بوضوح، فيقول: "ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه ﷺ وإدنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي أثناء ذلك يحركهم جل وتعالى ويذكرهم ويوبخهم على سوء مرتكباتهم بتلطف واستدعاء كريم منعم فقال: ﴿الأحزاب سبأ فاطر يس﴾ ، والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام لا يشاركه في شيء من ذلك، فقال تعالى: ﴿التكاثر العصر الهمزة الفيل قريش الماعون الكوثر الكافرون النصر المسد﴾ ، ولما بين كل ذلك قال: ﴿﴾﴿﴾﴿﴾ ، أي: في أي نعمة تشكون أم بأية آية تكذبون؟ ثم قال: ﴿﴾سورة الفاتحة البقرة آل عمران

---

(١) البرهان: ٣١٩.

النساء ﴾ ، وإذا كان عليه السلام (نذير)، فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره"[١].

كما أشار الغماري إلى هذه المناسبة فقال: "حكى الله تعالى في السورة السابقة قول الكفار في النبي ﷺ: (أم يقولون)، فأقسم هنا على تبرئة نبيه مما اتهموه به، وأنه لا ينطق إلا عن وحي وتعليم منه (والنجم إذا هوى)، نفى عنه الضلال والغي والنطق عن الهوى، (إن هو إلا وحي)، وأثبت أن كلامه إنما هو بالوحي، وأنه يتلقاه عن جبريل عليه السلام، وهذا أبلغ ما يكون في ردِّ كلام الكفار السابق"[٢].

ومن الوشائج التي تربط بين السورتين اشتراكهما في الإشارة إلى الذرية، حيث أشارت الطور إلى ذرية المؤمنين، بينما أشارت النجم إلى ذرية اليهود، يقول السيوطي في تجلية هذا الوجه من المناسبة: "إنَّ الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين، وأنهم تبع لآبائهم، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود في قوله: ﴿ الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف ﴾ الآية، فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر والواحدي بأسانيدهم عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول: إذا هلك صبي صغير هو: صدِّيق، فبلغ ذلك

---

(٢) البرهان: ٣١٩.

(١) جواهر البيان: ١٠٨.

النبي ﷺ فقال: كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقيٌّ أو سعيد، وأنزل الله عند ذلك ﴿الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الأَحْزَابِ سَبَأٍ فَاطِرٍ يس﴾ ، ولما قال هناك في المؤمنين: ﴿﴾﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَةِ الأَنْعَامِ الأَعْرَافِ﴾ ، أي: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين، مع نفعهم بما عمل آباؤهم، قال هنا في صفة الكفار أو بني الكفار: ﴿البُرُوجِ الطَّارِقِ الأَعْلَى الغَاشِيَةِ الفَجْرِ البَلَدِ الشَّمْسِ﴾ ، خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار، وهذا وجه بيِّنٌ بديعٌ في المناسبة، من وادي التضاد"(١).

والحقُّ أنَّ هذا الوجه من المناسبة لم يكن محلَّ اتفاقٍ بين العلماء، فاعتُرض عليه بأنَّ ما ذُكر من سبب نزول قوله: (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ..) فيه نظر، وأن هذا ليس خاصا باليهود، بل فيه ذكرٌ لذرية كلِّ كافرٍ حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير(٢)، كما اعتُرض عليه بأنَّ المفسرين لم يتفقوا على أنَّ قوله: (أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..) في الصغار، وهي ملاحظات دوَّنها الألوسي على هذا الوجه من المناسبة، داعياً إلى مزيد من التأمل والنظر بين السورتين لاستكناه غيره من جماليات التناسق والانسجام، يقول: "نعم، مَن تأمل ظهر له وجوهٌ من المناسبات غير ما ذكر فتأمل"(٣)، وهي

---

(٢) تناسق الدرر: ١٣٤.
(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٤٣٧.
(٢) انظر: روح المعاني: ١٤/٤٤.

لفتةٌ مهمة يفصح من خلالها عن أهمية أن تكون الأسس التي تقوم عليها المناسبة صحيحةً سليمة، خاصةً إذا كانت متصلةً بالسياقات الخارجية للنص القرآني.

ويضيف الرازي إلى هذه الوجوه ما لاحظه من تناسقٍ عامٍّ في ترتيب السور قبل هاتين السورتين، وانتظامهما في سلكٍ متناسقٍ وانسجامٍ بديع، مبيناً كيف أنَّ هذا الترتيب جاء ليكمل أصول التوحيد الثلاثة التي كان القرآن الكريم يسعى إلى تأكيدها في أذهان المشركين وقلوبهم في بداية الدعوة الإسلامية.

يقول الرازي في سياق حديثه عن سورة النجم ومناسبتها لما قبلها: "السور التي تقدَّمت وافتتاحها بالقسم بالأشياء دون الحروف هي (الصَّافَّات) و(الذَّارِيَات) و(الطُّور)، وهذه السورة بعدها، فالأولى أن يُقسِم لإثبات الوحدانية كما قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (الصافات: ٤)، وفي الثانية أقسم لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (الذاريات: ٥، ٦)، وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الطور: ٧، ٨)، وفي هذه أقسم لإثبات النبوة؛ لتكمل الأصول الثلاثة: الوحدانية، والحشر، والنبوة"[1]، ومع أن (الصافات) تبتعد قليلا عن هذه السور الثلاث المتتالية إلا أن

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣١/٢٨.

الرازي يلاحظ اشتراكها في القسم بالأشياء دون الحروف، ولهذا نظر إلى المقسم عليه فيها، فلحظ هذا النوع من التناسب.

ويلاحظ البقاعي وجهاً آخر من المناسبة لمجيء النجم بعد السور الثلاث قبلها، انطلاقاً من النظر في إحدى أهم أفكارها الرئيسة، يقول: "مقصودها ذمُّ الهوى.. ومدح العلم.. والحثُّ على اتباع النبي ﷺ في نذارته التي بيَّنتها سورة (ق)، وصدَّقتها (الذاريات)، وأوقعتها وعيَّنتها (الطور) كما يتبع في بشارته؛ لأنَّ علمه هو العلم، لأنه لا ينطق عن الهوى، لا في صريح كتابه ولا في بيانه له؛ لأنَّ الكل عن الله الذي له صفات الكمال، فلا بد من بعث الخلق إليه، وحشرهم لديه، لتظهر حكمته غاية الظهور، فيرفع أهل التزكي والطهور، ويضع أهل التدسي والفجور"(١).

فالسور الأربع متشابهةٌ في التركيز على قضية إنذار المشركين بالعذاب إن لم يؤمنوا، ولا غرو في ذلك، فهي مكية كانت تخاطب مشركي مكة في بدايات الدعوة الإسلامية، ولم يكن يناسبهم إلا هذا النوع من الخطاب، وحين أوضحتْ السور الثلاث تفاصيل هذا الإنذار وصدَّقتْ وقوعه وحقَّقته وعيَّنته، فلم يبق شكٌّ في وقوعه، جاءت النجم بعدها لتحثَّ على اجتناب

(٢) مصاعد النظر: ٣٥/٣.

الوعيد الذي اشتمل عليه الإنذار، من خلال تصديقه ﷺ واتباع ما جاء به.

علاقة القمر بالنجم:

يلحظ المتأمل في مقصود السورتين وفي الموضوعات التي تناولتها كل واحدة منهما مجموعةً من المناسبات التي تجعل مجيء القمر بعد النجم متوقعا ومفترضا، بل إنَّ من يتأمل في المناسبات بينهما يدرك أنه لا يمكن لأي سورة أن تحل محل القمر في هذا المكان، مما يؤكد حسن الترتيب وجمال التنسيق الذي تميزت به سور القرآن الكريم. وحتى لا يكون هذا الكلام إنشاءً دون تطبيق، أو ادعاءً دون دليل، أشير هنا بإيجاز إلى بعض المناسبات الجمالية التي سوَّغت مجيء السورتين بهذا النسق الجمالي البديع.

ولعل أول ما يمكن ملاحظته من انسجام بين السورتين تناسبهما في الاسم، فالنجم والقمر كوكبان سماويان، وكلاهما ذُكرا في أول آية من السورة، إلا أنَّ القرآن أقسم في النجم به على أنَّ الرسول ﷺ ما ضلَّ وما غوى، بينما أخبر في القمر عن انشقاقه واقتراب الساعة، يقول السيوطي عن هذه المناسبة: "لا يخفى ما في توالي السورتين من حسن التناسق والتناسب في

التسمية، لما بين النجم والقمر من الملابسة، ونظيره توالي الشمس والليل والضحى، وقبلها سورة الفجر"[1].

ثم إن المتأمل في موضوعات السورتين يلحظ بوضوح علاقة تكاد تكون من أقوى العلاقات التي تربط بينهما، وهي علاقة التفصيل بعد الإجمال، حيث أجمل القرآن الكريم الحديث في النجم عن مصارع بعض الأمم الغابرة، وأشار إليها إشارات عابرة، ثم جاءت سورة القمر لتكشف عن تفاصيل هذه المصارع، وتفصح بمزيد بيان عن الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المآل، وتقترب أكثر من صورة العقاب الذي حلَّ بهم.

وقد أشار إلى هذه المناسبة السيوطي أيضا، مستحضراً -كما فعل في إشارته السابقة- بعض السور التي كانت العلاقة بينها تفصيلا بعد الإجمال، يقول في سياق حديثه عن سورة القمر: "ووجهٌ آخر، وهو أن هذه السورة كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، وكالصافات بعد يس، في أنها تفصيلٌ لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾"[2]، والسيوطي يلفت في هذه الإشارة إلى أنَّ هذا النوع من العلاقة يمكن ملاحظته في توالي مجموعة من سور القرآن، مما

(١) تناسق الدرر: ١٣٥، وانظر: حدائق الروح: ١٩١/٢٨.
(٢) تناسق الدرر: ١٣٥، وانظر: التفسير المنير: ١٤٣/٢٧.

يمنح المتأمل منهجاً يسير عليه في ملاحظة هذا النوع من العلاقات.

وأشار الغرناطي إلى جمالية أخرى من جماليات المناسبة بين القمر وما قبلها، من خلال نظرة أشمل إلى مجموع السور قبلها، وكيف انتظمت في هذا الترتيب، ابتداء من سورة ص، إذ أوضح أنها تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدَّمها، وهكذا توالت السور بعدها تؤكد توبيخهم وتقرر تقريعهم، وبعد أن أورد منها نماذج من آيات هذه السور قال: "وأمَّا سورة (والذاريات) (والطور) (والنجم)، فما تضمَّنته مما ذكرناه قبلُ أوضح شيء، وبذلك افتُتحت كلُّ سورةٍ منها، فتأمَّل مطالعها، ففي ذلك كفايةٌ في الغرض، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ، وبلغتْ الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية، تمحَّض باطلهم، وانقطع دابرهم، ولم يجدوا جوابا، عرض عليهم سبحانه في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد من ذلك -والله أعلم- مجرَّد التعريف بأنهم ذُكِّروا فكَذَّبوا فأُخِذوا؛ ليتبين لهؤلاء أنَّ لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأنْ لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعذارٌ عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدَّم"[1]، أي أنَّ القمر جاءت

(١) البرهان: ٣٢٠.

لتؤكد للمشركين -بعد توبيخهم في السور السابقة- أنَّ دورهم في العذاب قادمٌ لا محالة، إن لم يتراجعوا عن موقفهم.

ولا يتوقف الغرناطي عند هذا، بل يضيف ما يكشف من خلاله عن تداعي معاني السورة، وكيف أنَّ ترتيبها جاء متناسباً مع الدلالات السابقة، يقول: "وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكلِّ آيةٍ إلى غايةٍ يعجز عنها البشر، لهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله: ﴿النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك﴾ وختمها بقوله: ﴿الذاريات الطور النجم القمر﴾، وهذا يبيّن ما قدَّمناه، وكأن قد قيل: أيُّ فرقٍ بينكم وبين مَنْ تقدَّم حتى ترتكبوا مرتكبهم، وتظنون أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم؟ فذكر سبحانه لهم قصة كلِّ أمةٍ وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز، وأجزل إيراد، وأفحم عبارة، وألطف إشارة، فبدأ بقصة قوم نوح... إلى قوله: ﴿الأنعام الأعراف الأنفال التوبة يونس هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل الإسراء﴾، ثم استمرَّ في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسب ما ذُكروا في السور الواردة فيها أخبارهم من ذكر أمةٍ بعد أمة، إلا أنَّ الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر، وأبلغ في الوعظ، وأعرف في الإفصاح بسوء منقلبهم، وعاقبة تكذيبهم"[1].

---

(١) البرهان: ٣٢٥.

ومن وجوه المناسبة بين السورتين أيضاً أنَّ القمر جاءت لتكشف عن المفارقة بين موقف المشركين من القرآن وبين ما أمر به المولى ﷻ تجاه هذا الذكر الحكيم، يقول الغماري مجلياً هذه الجمالية: "أخبر تعالى هناك -في النجم- أنَّ الكفار أعرضوا عن القرآن: ﴿الحجر النحل الإسراء الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء﴾ أي: لاهون عن التذكر به والتدبر لما فيه، فأخبر هنا أنه يسَّر القرآن للتذكر والاتعاظ، وأمر بالاتعاظ به: ﴿الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان﴾ تكررت هذه الآية في هذه السورة عدة مرات للحضّ على التذكر بالقرآن والاتعاظ به، على خلاف ما اتبعه الكفار من الإعراض عنه"[1]، فبين السورتين مفارقةٌ بالغةٌ من هذا الوجه، وكأنَّ في هذا إيحاءً إلى شناعة موقف الكفار من القرآن وشدة قبحه، إذ كيف يضحكون منه ويلهون عنه ولا يتأثرون به، وقد أمر المولى ﷻ بالتذكر به والتدبر فيه والاتعاظ بما جاء فيه، وليس مجرَّد الإيمان به.

هذا بالإضافة إلى ما ذُكر من مناسبةٍ بين ختام النجم ومطلع القمر من أنه لما أخبر في الأولى عن قرب القيامة (أزفت الآزفة)، أكد في الثانية ذلك بظهور علامة من علاماتها.

علاقة الرحمن بالقمر:

---

(١) جواهر البيان: ١٠٩.

لسورة الرحمن علاقةٌ وثيقةٌ بالقمر، ومع اختلاف الموضوعات المتحدَّث عنها في كل سورة، ومع اختلاف الإيقاع الذي بُنيت عليه كلٌّ منهما، إلا أنَّ السابر في أغوار السورتين والمتأمل في مقصودهما وتفاصيل أفكارهما سيلحظ مجموعة من الوشائج والعلاقات التي تربط بينهما، وتجعل تواليهما بهذا النسق في منتهى البراعة وغاية الإعجاز، ولعلي أحاول هنا أن أفصح عن شيء منها بإيجاز.

فأول ما يمكن ملاحظته من مناسبة بين السورتين ما جاء في مطلع كل واحدة منهما، حيث افتتحتا بمعجزة من معجزات المولى ﷻ، فانشقاق القمر المذكور في افتتاح الأولى، ونزول القرآن وتعليمه الإنسان المذكور في افتتاح الثانية من أبرز المعجزات التي أنعم بها على رسوله الكريم ﷺ، يقول النيسابوري في مقدمة حديثه عن سورة الرحمن: "افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على الهيبة والعظمة وهي انشقاق القمر، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والعناية وهي القرآن الكريم الذي فيه شفاء القلوب والطهارة عن الذنوب، وهو أسبق الآلاء قدما، وأجل النعماء منصبا"[1]، وفي كلامه تظهر مناسبةٌ أخرى، تتضح في أنَّ بين المعجزتين نوعاً من التقابل والضدية، ففي انشقاق القمر هيبةٌ وخوفٌ

(١) غرائب القرآن: ٢٢٧/٦.

وتهديدٌ وتخويف، وفي إنزال القرآن وتعليم الإنسان البيان رحمةٌ وطمأنينةٌ وسكونٌ وأمان، وهو ما يكشف عن نوعٍ من المفارقة بين السورتين من هذا الوجه.

ومن الوشائج التي تربط بين السورتين تلك الجمل المكررة في كل واحدة منهما، حيث كرر القرآن الكريم في سورة القمر قوله: ﴿الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ﴾، وكرر في سورة الرحمن قوله: ﴿الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الْأَحْزَابِ﴾، وكأنَّ هذا التكرار مما يؤكد التقابل السابق، حيث تشعر الجملة الأولى بالتخويف والتهديد؛ لأنها ذُكرت إثر كل عقاب حلَّ بالأمم السابقة، وتفصح الثانية عن عظيم نعم الله ﷻ على الإنس والجن، وعن التعجب من التكذيب بها؛ لأنها ذُكرت بعد كل نعمة أنعم بها المولى ﷻ على الخلق.

يقول النيسابوري بعد حديثه السابق: "وبين السورتين مناسبةٌ أخرى من جهة أنه ذكر هناك ما يدلُّ على الانتقام والغضب كقوله: ﴿الْفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ﴾، وقوله: ﴿الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ﴾، وذكر في هذه السورة بعد تعداد كل نعمة: ﴿الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الْأَحْزَابِ﴾ مرة بعد مرة، وتذكير النعمة على نعمة لأنها مما توقظ الوسنان، وتنبه أهل الغفلة والنسيان"[1].

(١) غرائب القرآن: ٢٢٧/٦.

وينظر أبو السعود إلى تكرار آخر في سورة القمر، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ ، رابطاً بينه وبين تكرار آية الآلاء في الرحمن، مفيداً مما بين الجملتين في إبراز وجهٍ جديدٍ من وجوه التناسب بين السورتين، يقول: "لما عدَّ في السورة السابقةِ ما نزلَ بالأممِ السالفةِ من ضروبِ نقم الله ﷻ، وبيّن عَقيبَ كلِّ ضربٍ منَها أنَّ القرآنَ قد يُسِّرَ لحملِ النَّاسِ على التذكُّرِ والاتعاظ، ونعى عليهم إعراضَهُم عن ذلك، عدَّدَ في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافَّة الأنام من فنونِ نعمه الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية، وأنكرَ عليهم إثْرَ كلِّ فنٍ منها إخلالَهُم بمواجبِ شُكرِها، وبُدىءَ بتعليمِ القُرآنِ"[1].

ويضيف الألوسي مبيناً شيئاً من جماليات هذا التكرار: "وهذا التكرار أحلى من السكر إذ تكرر... التكرار في سورة (الرحمن) إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعدَّدة، فكلما ذكر سبحانه نعمةً أنعم بها وبَّخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أُحسِن إليك بأنْ خوَّلتك في الأموال؟ ألم أُحسِن إليك بأنْ فعلتُ بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يُقرَّر به، وهو كثيرٌ في كلام العرب وأشعارهم"[2]، ومثل ذلك يقال

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٧٦/٨، وانظر: تفسير المراغي: ١٠٤/٢٧.
(٣) روح المعاني: ٩٦/١٤، ٩٧.

في تكرار القمر، لاختلاف الأمة المعذبة ونوع العقاب الذي حلَّ بهم.

ويختار الرازي من هذه المناسبات اثنتين يرى أنهما الأوضح بين السورتين، وعنهما تتفرَّع البقية، ويشير إليهما بأوجز إشارة وأفصح عبارة، فيقول في افتتاح حديثه عن سورة القمر: "اعلم أولاً أنَّ مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين؛ أحدهما: أنَّ الله تعالى افتتح السورة المتقدِّمة بذكر معجزةٍ تدلُّ على العزَّة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر، فإنَّ مَن يقدر على شقِّ القمر يقدر على هدِّ الجبال وقدِّ الرجال، وافتتح هذه السورة بذكر معجزةٍ تدلُّ على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم، فإنَّ شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب، ثانيهما: أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ غير مرة، وذكر في السورة: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مرة بعد مرة؛ لما بينا أنَّ تلك السورة سورة إظهار الهيبة، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة"(١).

ومن وجوه العلاقة بين السورتين التفصيل بعد الإجمال، إذ جاءت الرحمن مفصلة لما أجمله القرآن في القمر، وقد كفانا السيوطي عناء بيان هذا الوجه من المناسبة حين توقف عنده، كاشفاً عن أنه من أبرز الجماليات التي تربط بين السورتين،

---

(١) مفاتيح الغيب: ٣٣٥/٢٩.

يقول: "لما قال سبحانه وتعالى في آخر القمر: ﴿الحِجْر المُزَّمِّل المُدَّثِّر القِيَامَة الإِنسَان المُرْسَلَات النَّبَأ﴾، ثم وصف حال المجرمين في سقر، وحال المتقين في جنات ونهر، فصَّل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل، على الترتيب الوارد في الإجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى إذهابها، ثم وصف النار وأهلها، والجنة وأهلها؛ ولذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فلم يقل: (الكافرون) أو نحوه؛ لاتصاله بقوله هناك: ﴿النَّازِعَات عَبَسَ﴾، ثم وصف الجنة وأهلها، وكذا قال فيهم: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ﴾، وذلك هو عين التقوى، ولم يقل: ولمن آمن وأطاع أو نحوه؛ لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصَّل، وعُرف بذلك أنَّ هذه السورة بأسرها شرحٌ لآخر السورة التي قبلها، فلله الحمد على ما ألهم وفهَّم"(١).

واللافت هنا حرص السيوطي على بيان هذا الوجه من التناسب، واعتماده على دقة القرآن في اختيار مفرداته لتأكيده وجود هذه العلاقة وصحتها، فإيثار وصف المجرمين في الرحمن مناسب لوروده في القمر، وإيثار وصف خوف مقام الرب في الرحمن مناسب للوصف بالمتقين في آخر القمر، وهي دلائل يرى معها السيوطي أنَّ من أهم الوظائف التي قامت بها سورة الرحمن الشرح والتفصيل لما أوجز وأجمل في سورة

(١) تناسق الدرر: ١٣٦، وانظر: نظم الدرر: ١٤٠/١٩.

القمر، ولهذا فلم يكن يصلح أن يليها غيرها، وهي صورة من صور إعجاز القرآن في نظمه وترتيبه.

ولا تتوقف المناسبات عند هذا؛ لأنَّ من يتأمل في السورتين يجد المزيد من الوشائج والصلات التي تجعل مجيء الرحمن بعد القمر في غاية التناسق والانسجام، ومن ذلك أنَّ قصص الأمم المعذَّبة الواردة في القمر تحمل في طياتها الرحمة والشفقة؛ لأنها واردة على سبيل الاتعاظ والاعتبار والحث على الإيمان لتجنب العذاب، فناسب بعد هذا أن تأتي الرحمن لتكشف عن تفاصيل هذه الرحمة وصور هذه النعمة، يقول الغرناطي في سياق حديثه عن وضوح بعض ملامح عظمة القرآن وإعجازه: "وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه، مع حصول أطرافها، وتوفية أغراضها، وما جرى مع كلِّ قصةٍ من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار... فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا، وبأنَّ فيها عظيم الرحمة في ذكر القصص ونفع العظات، وظهرت حُجَّة الله على الخلق، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسَّره لتدبُّر الكتاب ووفَّقه لفهمه واعتباره، أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ، وخصَّ من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه، ثم قد تمهد أنَّ سورة القمر إعذار، ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزدادوا إلى بسط

الدلالات، وإيضاح البينات إن يعذر إليهم زيادة في الإبلاغ، فأنبأ تعالى أنَّ هذا رحمة"[1].

ولا يتوقف أبو جعفر عند هذه المناسبة، بل يردفها بمناسبة أخرى تفصح عن شدة التلاحم بين السورتين، فيبين أن بينهما علاقة من نوع ذكر العام بعد الخاص، يقول: "ثم إذا تأملتَ سورة القمر وجدتَ خطابها وإعذارها خاصا ببني آدم، بل بمشركي العرب منهم فقط، فأُتبعت بسورة الرحمن؛ تنبيهاً للثقلين، وإعذاراً إليهم، وتقريراً للجنس على ما أودع الله تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة، فتكرَّر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ خطاباً للجنسين، وإعذاراً للثقلين، فبان اتصالها بسورة القمر أشدَّ البيان"[2]، وهكذا تتعدد الوشائج، وتتنوع الصلات بين السورتين، بما يكشف عن كمال الانسجام وتمام التناغم بينهما.

علاقة الواقعة بالرحمن:

بين الرحمن والواقعة علاقةٌ وثيقة، لا تختلف في قوتها وانسجامها عن بقية العلاقات بين سور هذا الجزء، ونظرة سريعة على الأفكار الرئيسة والموضوعات التي تناولتها السورتان تنبيك عن قوة هذه العلاقة، وتكشف لك عن سرٍّ من

---

(١) البرهان: ٣٢٦.

(١) المرجع السابق: ٣٢٧، وانظر: جواهر البيان: ١١١.

أسرار توالي هاتين السورتين، وتفصح لك عن مدى انسجام مجيئهما على هذا الترتيب البديع المعجز.

فالسورتان تشتركان في الحديث عن أحداث يوم القيامة، وعن وصف أهل الجنة وما يلقونه من نعيم، وعن أهل النار وما ينتظرهم من العذاب المقيم، يقول السيوطي في تفصيل هذا الوجه من التناسب: "هذه السورة متآخيةٌ مع سورة الرحمن في أنَّ كلاً منهما في وصف القيامة والجنة والنار، وانظر إلى اتصال قوله هنا: ﴿الفاتحة البقرة آل عمران﴾ بقوله هناك: ﴿القلم الحاقة المعارج﴾ ؛ ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء، وفي الواقعة على ذكر رجّ الأرض، فكأنَّ السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة"(١)، وكأنَّ القرآن الكريم لما ذكر في الرحمن ما يحصل للسماء من تغيرات كونية يوم القيامة، اكتفى في الواقعة بما يحصل للأرض، وكأنَّ السورتين تكملان بعضهما في رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة.

ثم إنَّ مجيء الواقعة بعد الرحمن بمثابة رد العجز على الصدر، إذ يرى المتأمل أن ترتيب الموضوعات في الرحمن جاء على عكس ما ورد في الواقعة، يقول السيوطي مضيفاً على المناسبات التي أفصح عنها آنفاً: "ولهذا عكس في الترتيب، فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه

(٢) تناسق الدرر: ١٣٧، وانظر: حدائق الروح: ٣٣٩/٢٨.

ما في أول تلك، كما أشرتُ إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة، فافتتح في سورة الرحمن بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان، والجان من مارج من نار، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وابتدأ هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة، ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان، ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم ذكر النجوم، ولم يذكرها في الرحمن، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر، ثم ذكر القرآن، فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك، وكردِّ العَجُز على الصَّدْر"[1].

ومن وجوه التناسب بين السورتين أنَّ الواقعة جاءت كنتيجةٍ منطقيةٍ لما ورد في الرحمن، حيث عدَّد القرآن في هذه الأخيرة النعم التي أفاء بها المولى ﷻ على الإنسان، وأمره بشكرها وعدم كفرها والتكذيب بها، ثم جاءت الواقعة لتكشف عن المآل والجزاء لكلٍّ من الشاكر والكافر، يقول الرازي في بيان هذه الجمالية: "أما تعلُّق هذه السورة بما قبلها، فذلك من وجوه أحدها: أنَّ تلك السورة مشتملةٌ على تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه عن التكذيب كما مر، وهذه السورة مشتملةٌ على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر وبالشر لمن كذَّب وكفر، ثانيها: أنَّ تلك السورة متضمنةٌ للتنبيهات بذكر الآلاء في

(١) المرجع السابق نفسه، وانظر: روح المعاني: ١٢٨/١٤.

حقِّ العباد، وهذه السورة كذلك لذكر الجزاء في حقهم يوم التناد"[1].

ومن وجوه التناسب أيضا بين السورتين أنَّ الواقعة كانت كالمقابلة للرحمن، فإنَّ المتأمل في جو الرحمن يلحظ بوضوح مقامات الرحمة وسياقات العطف والطمأنينة، حيث أفاضتْ في وصف أهل الجنة وما ينتظرهم من نعيم مقيم، أما الواقعة فنظرةٌ سريعةٌ تكشف لك عن جو العذاب والتهديد والتخويف الذي لا تجد عناءً في ملاحظته منذ آياتها الأولى، ولهذا يذكر الرازي في وجوه المناسبة بينهما "أنَّ تلك السورة -أي الرحمن- سورة إظهار الرحمة، وهذه السورة سورة إظهار الهيبة، على عكس تلك السورة مع ما قبلها"[2]، وهو يقصد في عبارته الأخيرة ما بين الرحمن والقمر من علاقة، حيث جاءت الرحمن وسط هاتين السورتين اللتين يغلب عليهما جو الرهبة والتخويف، على عادة القرآن في ذلك، ولعل هذا التقابل هو ما كان يقصده السيوطي في كلامه السابق.

ومن العلاقات التي تربط الواقعة بالرحمن اشتراكهما في عرض أنواع الخلق يوم القيامة واستيفاء مآلاتهم، يقول الغماري مفصلاً في بيان هذه المناسبة: "ذكر الله تعالى في

(١) مفاتيح الغيب: ٣٨٤/٢٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.

السورة السابقة نعيم أهل الجنة بإسهاب، فكان من المناسب أن يُقسِّم هذه المخلوقات إلى ثلاثة أقسام: السابقون أي المقربون، وأصحاب اليمين وهم أهل الجنة، وأصحاب المشأمة أي أصحاب الشمال أو المكذبون الضالون وهم أهل النار، المعبر عنهم بالمجرمين في السورة السابقة، فاستوفت السورتان أنواع المنعمين والمعذبين، أو السعداء والأشقياء"[1]، وهذا البيان من أهم مقاصد السور المكية التي نزلت في وقت مبكر، وكان خطابها موجهاً إلى المشركين في المقام الأول.

وينظر الغرناطي إلى سياق مجيء الواقعة في هذا الترتيب بصورة أكثر شمولا، فيحاول أن يكشف عن مناسبتها بعد السورتين قبلها، وكيف أنها أتت منسجمة لتكمل أفكارهما، وتؤكد موضوعاتهما، يقول صاحب البرهان: "لما تقدَّم الإعذار في السورتين المتقدمتين، والتقرير على عظيم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أنَّ كلَّ واقعٍ في العالم فبقضائه سبحانه وقدره: ﴿التِّينِ الْعَلَقِ الْقَلَمِ الْبَيِّنَةِ الزَّلْزَلَةِ الْعَادِيَاتِ﴾ ﴿العظيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ﴾، وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح بذكر الساعة ﴿الْفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فتجرَّدت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية، وصُدِّرتْ بذلك عما جُرِّد في السورتين قبل

(١) جواهر البيان: ١١٢.

التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجرَّ في السور الثلاث جارياً على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب؛ لطفاً بالعباد ورحمة"[1].

ويؤكد الغرناطي هذه الجمالية متكئاً على مطالع هذه السور، ومنطلقاً من دلالاتها في تناسق هذا الترتيب، يقول: "ومطالعها مبنيةٌ على ما ذكرته تصريحاً لا تلويحا، وعلى الاستيفاء لا بالإشارة والإيحاء، ولهذا قال تعالى في آخر قصص افتراق أحوالهم الأخروية في هذه السورة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فأخبر أنَّ هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدَّم حالهم الدنيوي في السورتين قبلُ، وتأكد التعريف المتقدم فيما بعدُ وذلك قوله: ﴿ ﴾ ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَة﴾ إلى خاتمتها"[2]، وهي مناسباتٌ تبرز جمالية استقرار هذه السورة في موضعها، وتناغمها أجمل تناغم مع ما قبلها، وتناسبها معها في كثيرٍ من الوشائج والصلات.

علاقة الحديد بالواقعة:

يلحظ المتأمل في سورة الحديد، وما اشتملت عليه من أفكار وموضوعات، وجوها من التناسب والانسجام، تؤكد صلتها الوثيقة بسورة الواقعة، وتكشف عن مدى استقرارها في ختام هذا الجزء الكريم.

---

(١) البرهان: ٣٢٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.

ولعل النظر في مقصودها يكشف عن بعض أسرار اتصالها بما قبلها، إذ تدور السورة حول تأكيد عموم رسالة النبي ﷺ، والحث على اتباعه والعمل بأوامره والتحذير من مخالفته، وهذا مكمل لعموم الإلهية التي أكدت عليها سورة الواقعة، كما أنَّ عمومه رسالته ﷺ تنسجم مع الإشارة إلى الأزواج الثلاثة المذكورين هناك.

يقول البقاعي في بيان هذه المناسبة اللطيفة في افتتاح حديثة عن سورة الحديد: "ومقصودها: بيان أنَّ عموم الرسالة مناسبٌ لعموم الإلهية، بالإرسال إلى الأزواج الثلاثة، المذكورة في السورتين الماضيتين من الثقلين؛ تحقيقاً لأنه سبحانه مختص بجميع صفات الكمال، تحقيقاً لتنزهه من كل شائبة نقص، المبدوء به هذه السورة، المختوم به ما قبلها"[1]، فقد تناسبت السورتان في التأكيد على هذا العموم: عموم الألوهية في الواقعة، وعموم الرسالة في الحديد، وهذه من أهم الأصول التي جاءت السور المكية لتأكيدها وتثبيتها في نفوس المخاطبين في بداية الدعوة الإسلامية.

ومن وجوه المناسبة بين السورتين أيضاً أن سورة الحديد جاءت في فكرتها الرئيسة لتنزه المولى ﷻ عن شناعة أفعال المشركين وسوء ظنهم الذي أشارتْ إليه سورة الواقعة،

(١) مصاعد النظر: ٥٩/٣.

وتُعرِّفهم بطلاقة قدرته ومدى قوته وقهره ﷻ، وتكشف لهم عن بعض صفاته، لعلهم يخجلون، ويرتدعون عمَّا أقدموا عليه هناك، وينتهون عن سخريتهم واستهزائهم وضحكهم ولهوهم عن الإيمان بالله والتدبر في كتابه الكريم.

وقد أفاض الغرناطي في تفصيل هذه العلاقة، ساعياً إلى تتبع الخيوط الدقيقة التي أوصلت الواقعة بالحديد، وكيف انسجمتا بهذا الترتيب المعجز، يقول: "لما تقدَّم قوله تعالى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ ، وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قُرِّع به ما لا خفاء به، ثم أتبع بقوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَعُوذُ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿المعارج نوح الجن﴾ ، فأُنذروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿الرحيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَالَ﴾ ، واستمرَّ توبيخهم إلى قوله: ﴿﴿ ﴾﴿ ﴾﴾ ، فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم أعقب تعالى ذلك بتنزيهه ﷻ من سوء ما انتحلوه، وضلالهم فيما جهلوه، فقال تعالى: ﴿المزمل المدثر القيامة الانسان المرسلات﴾ أي: نزِّهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترامهم، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور﴾ ، ثم أتبع ذلك بقوله: (له الملك وله الحمد)(١)، فبيَّن تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنه المنفرد

---

(١) يبدو أنَّ المؤلف وهم هنا، إذ لم يرد في سورة الحديد هذه الآية، بل ورد قوله تعالى: ﴿الحديد المجادلة الحشر الممتحنة﴾ مرتين.

بالملك والحمد، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله: ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ﴾ "[1].

ويستكمل الغرناطي بيانه لهذه المناسبة اللطيفة بين السورتين، كاشفاً عن الوظيفة الرئيسة التي أدتها سورة الحديد بعد الإفصاح عن موقف المشركين الذي أبانت عنه الواقعة، وكيف أنَّ الخطاب انتقل بعد ذلك إلى الفريق المقابل، يقول: "فتضمَّنتْ هذه الآي إرغام مَنْ أُشير إلى حاله في الآي المتقدمة في سورة الواقعة، وقطع ضلالهم، والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جلَّ وتعالى، والتحمتْ آي السورتين، واتصلتْ معانيها، ثم صُرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿المَائِدَةِ الأَنْعَامِ الأَعْرَافِ﴾ ، واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة"[2].

ولا تقف الوشائج والصلات بين السورتين عند هذا الحد، بل يظهر للمتأمل المزيد منها، مع ما بينهما من اختلاف جلي في الإيقاع من جهة اختلاف حروفه وتنوعه أو ثباته، ومن جهة قصره أو طوله، ومن ذلك استيفاء أنواع الخلق يوم القيامة من جهة موقفهم من الدعوة الإسلامية، والتنبيه على أن نوعاً من الناس لن يكونوا من فريق المؤمنين كما كان يُعتقد في الدنيا،

---

(٢) البرهان: ٣٢٩.
(١) البرهان: ٣٣٠.

بل هم من المكذبين المستحقين للعذاب، وهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فجاءت سورة الحديد لتكشف عن هذا الفريق.

وقد تنبه الغماري إلى هذه المناسبة، وحرص على الإشارة إليها في جواهره، يقول في سياق حديثه عن مناسبة سورة الحديد لما قبلها: "بيَّنتْ السورة السابقة أنواع الخلق يوم القيامة، وقسَّمتْ أهل الجنة قسمين: سابقين مقربين، وأصحاب ميمنة، وذكرتْ في أهل النار نوعاً واحداً، وهم أصحاب المشأمة المكذِّبون الضالون، فضمَّت هذه السورة إليهم نوعاً آخر، كان الناس يحسبونهم مؤمنين؛ لأنهم كانوا يظهرون الإيمان وأعماله، وهم في الباطن مكذبون، أولئك هم المنافقون... فما هنا متممٌ لما هناك وموضحٌ له"(١).

وهكذا تتلاحم سور هذا الجزء، وتنسجم موضوعاتها، وتتصل كل واحدة منها بما قبلها أجمل اتصال، وتتعلق بها أروع تعلق، حتى إنك لتكاد أن تعد سور هذا الجزء سورة واحدة لالتحام سوره وارتباط أفكارها وإكمال بعضها لبعض، وهو ما يؤكد للمتأمل الفطن أنَّ توالي هذه السور بهذا الترتيب لم يكن محض صدفة أو باجتهاد بشري، بل كان بوحي إلهي، وتوجيه رباني، فما هذا الانسجام والتناغم والترتيب والاتساق

---

(٢) جواهر البيان: ١١٣.

البديع إلا أكبر دليل على عظمة هذا الكتاب، وبلوغه أعلى مراتب البلاغة والفصاحة والبيان.

* * *

الفصل الثاني:

جماليات التناسب في السورة الواحدة

المبحث الأول: جماليات التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها

تتعدد وجوه التناسب في القرآن الكريم، وتتنوع صور انسجام سوره وآياته وتناغم مشاهده، وإذا كان الفصل الأول بمبحثيه متوجهاً إلى الكشف عن جماليات التناسب بين السورة وما قبلها، فإن هذا الفصل سيسعى إلى الإفصاح عن جماليات التناسب بين أجزاء السورة الواحدة، من خلال النظر إلى زاويتين؛ سأحاول في الأولى منهما أن أعالج وجوه التناسب والتناغم بين مطلعها وخاتمتها، وفي الثانية سأسعى إلى استكناه جماليات التناسب بين المشاهد المكوِّنة للسورة الكريمة.

لقد أشار بعض العلماء إلى أنَّ من وجوه إعجاز هذا الكتاب العظيم ذلك التناسب العجيب الذي يجده المتأمل بين مطلع السورة وخاتمتها، والانسجام البديع بين الموضوع الذي تشير إليه في افتتاحها، والفكرة التي تؤكد عليها في نهايتها، ولعل هذا مما يدل على أنَّ السورة القرآنية وحدةٌ متكاملة، لها فكرةٌ رئيسةٌ تبدأ بها وتنتهي بها، حتى وإن تعددت الموضوعات التي تتوزع فيما بين الفاتحة والخاتمة، وكأنَّ القرآن يعمد إلى هذا ليؤكد هذه الفكرة، ويذكّر المتلقي بالموضوع الرئيس، وبه تصبح السورة كالكلمة الواحدة، قد التمَّ طرفاها، وعاد أولها على آخرها، وذكَّرتْ خاتمتها بافتتاحها.

فهذا أبو حيان يشير إلى هذا النوع من المناسبات في سياق تفسيره لخواتيم سورة البقرة، وذلك عند إشارته إلى سبب نزول قوله ﷻ: ﴿هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ الْإِسْرَاءِ الْكَهْفِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، يقول: "وظهر بسبب النزول مناسبة هذه الآية لما قبلها، ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل، وأنه هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب، وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله، كان مختتمها أيضا موافقا لمفتتحها"[1].

ويستثمر أبو حيان هذه الفرصة ليكشف عن منهجية القرآن في اهتمامه بهذا النوع من المناسبات، وعنايته بارتباط أوائل سوره بأواخرها، بعد تتبع دقيق ودراسة تأملية طويلة، مؤكداً أنَّ هذا من أساليب العرب الفصيحة وطريقة كلامهم البليغ، يقول: "وقد تتبعتُ أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كلِّ سورة سورة، وذلك من أبدع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذا في شيء، ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر، هكذا طويلا، ثم يعود إلى ما كان آخذا فيه أولا، ومن أمعن النظر في ذلك سهل عليه مناسبة

(١) البحر المحيط: ٧٥٥/٢.

ما يظهر ببادئ النظم أنه لا مناسبة له، فبيَّن تعالى في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمة محمد ﷺ"[1].

ويتنبه العز بن عبدالسلام إلى هذا النوع من المناسبات، ويرى أنه شرطٌ أساسٌ في الحكم على الكلام بالتناسب، ولهذا يؤكد أنَّ "المناسبة علمٌ حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره"[2].

ولم يغفل السيوطي الإشارة إلى مناسبة المطالع للخواتيم، إذ عدها ضمن أنواع المناسبات التي يمكن ملاحظتها في القرآن، مؤكداً اهتمامه بها من خلال إفرادها بالتأليف، ومفصحاً عن بعض النماذج منها، يقول في ذلك: "ومن هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها، وقد أفردتُ فيه جزءاً لطيفا سميته (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، وانظر إلى سورة القصص كيف بُدئت بأمر موسى ونصرته وقوله: ﴿الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ (القصص: ١)، وخروجه من وطنه، وخُتمت بأمر النبي ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعود إليها؛ لقوله: في أول السورة ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (القصص: ٧)"[3].

---

(٢) البحر المحيط: ٧٥٥/٢.
(١) الإتقان: ٣٧٠/٣.
(٢) المرجع السابق: ٣٧٩/٣.

وينقل السيوطي اهتمام المفسرين قبله بالنظر في مناسبة مطلع السورة لختامها، وإدراكهم لهذا النوع من الانسجام والتناغم بين أجزاء السورة الواحدة، فيروي عن الزمخشري أنَّ الله جعل فاتحة سورة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (المؤمنون: ١)، وأورد في خاتمتها ﴿نوح الجن المزمل المدثر﴾ (المؤمنون: ١١٧)، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة! وعن الكرماني في سورة (ص) أنه بدأها بالذكر، وختمها به في قوله: ﴿﴾﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾ (ص: ٨٧)، وفي سورة (ن) بدأها بقوله: ﴿آل عمران النساء المائدة الأنعام الأعراف﴾ (القلم: ٢)، وختمها بقوله: ﴿الشعراء النمل﴾ (القلم: ٥١)[1]، وهو ما يؤكد عناية العلماء بهذا النوع من المناسبة، ودقة ملاحظتهم لنماذجها في سوره الكريمة.

وقد امتدَّ هذا الاهتمام إلى بعض العلماء المعاصرين الذين نبهوا على هذا النوع من المناسبات، وإن كانت العناية به لا تزال ضعيفة أقل من المطلوب، فهذا الغماري في سياق حديثه عن أنواع المناسبات في القرآن يقول: "ويوجد نوعٌ رابعٌ من المناسبة، وهو مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، أفرده السيوطي بالتأليف، كتب فيه جزءاً صغيراً سماه (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، ويدخل في هذا النوع (ردُّ العجز

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٣/٣٨٠.

على الصدر)، وهو من المحسنات البديعية"[1]، وهو يلفت النظر في نهاية كلامه إلى أنه كما اعتنى البلاغيون بردِّ الأعجاز على ما تقدَّمها[2] فإنَّ المفسرين أيضاً عُنوا ببيان أوجه التناسب والانسجام بين أوائل السور وخواتيمها، بل عدُّوا ذلك من مباحث هذا الفن[3]، وفي هذا ردٌّ على مَن[4] زعم أنَّ البلاغة لا تُعنى إلا بالجملة والجمل، وتهمل النظر في كامل النص ومجموعه، وأنها لا تتعامل معه بوصفه بنيةً واحدة.

وممن نبَّه على هذا النوع من التناسب الفراهي، الذي كانت له عناية كبيرة بالتناسب القرآني، يقول: "إني رأيت في كلام الله -وله الحمد على ما أراني- أنَّ الكلام ينجرُّ من أمرٍ إلى أمر، وكله جديرٌ بأن يكون مقصدا، فيشفي الصدور، ويجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلقة... من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجرَّ الكلام من أمرٍ إلى أمر، ومنه إلى أمر آخر،

---

(٢) جواهر البيان: ١٦.

(٣) انظر: البديع: ٦٢، الإيضاح: ٥٥٩/٢، نهاية الإيجاز: ٦٣، الإشارات والتنبيهات: ٢٦٨، العمدة: ٣/٢، البرهان في علوم القرآن: ٤٦٧/٣، خزانة الأدب: ٢٦٣/٢، المنزع البديع: ٤٠٤، البديع في نقد الشعر: ٥١.

(٤) انظر (على سبيل المثال): حاشية ابن التمجيد: ١٦٠، حاشية القنوي: ٢٢٥، التحرير والتنوير: ٥٢/١٧، ٥٥، ٣٢٢/٢٥، ٣٣/٢٧، ١٠٨/٢٩، ٣٦٨، وانظر: مقدمة تحقيق مراصد المطالع: ١٥.

(٥) انظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة: ١٢٩، وانظر: مقدمة تحقيق مراصد المطالع: ١٥.

ثم يعود إلى الأول أو إلى الوسط حتى يعود إلى الأول أو إلى ما يتصل به، وإذا كان المخاطَبُ عالماً بأسباب الكلام لم يُشكل عليه نظمه"[1].

ثم يضرب نماذج على هذا النوع من المناسبة تؤكد علو كعب القرآن وإعجازه في تناغم سوره وارتباط أولها بآخرها، فيذكر كيف تناسب أول الممتحنة والحشر والإسراء والمائدة والمؤمنون والمعارج مع أواخرها.

وسأقف في هذا المبحث مع كل سورة من سور هذا الجزء، متأملا في مطلعها وخاتمتها، ومحاولا استكناه جماليات التناسب بينهما، وأسرار انسجامهما وتناغمهما.

سورة الذاريات:

يقول المولى ﷻ في مطلع الذاريات: ﴿الرَّحْمَٰنُ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ الْمُلْكِ الْقَلَمِ الْحَاقَّةِ الْمَعَارِجِ نُوحٍ الْجِنِّ الْمُزَّمِّلِ الْمُدَّثِّرِ﴾، ويقول في خاتمتها: ﴿سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ الْمَائِدَةِ الْأَنْعَامِ الْأَعْرَافِ الْأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ الْإِسْرَاءِ﴾.

فقد افتتحت السورة الكريمة بأقسامٍ متواليةٍ بالرياح وبعض صفاتها على أنَّ وعد الله ﷻ للخلق بالبعث والنشور والحساب هو وعدٌ يقيني صادق لا شك فيه ولا ريب، غير أنَّ الخطاب

(١) دلائل النظام: ٥٥، وانظر: إمعان النظر: ٢٩٣.

موجه في المقام الأول إلى المشركين بدلالة الحال والسياق، يقول صاحب التحرير: "والخطاب في (توعدون) للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم، وكما يقتضيه تعقيبه بقوله: ﴿ ﷽ قال تعالى: ﴾ ، فيتعين أن يكون (توعدون) مشتقاً من الوعيد الذي ماضيه (أوعد)"[١]، هذا بالإضافة إلى جو السورة الكريمة ووقت نزولها.

كما أقسم القرآن بهذه الأقسام على أنَّ الدين واقع، "والدين: الجزاء، والمراد إثبات البعث الذي أنكروه، ومعنى (لواقع) واقعٌ في المستقبل بقرينة جعله مرتباً في الذكر على ما يوعدون، وإنما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل، وفي ذكر الجزاء زيادةٌ على الكناية به عن إثبات البعث تعريضٌ بالوعيد على إنكار البعث"[٢].

إذن فافتتاح هذه السورة يدور حول البعث والجزاء، والتأكيد على وقوعهما، ونفي كل شك عنهما، وقطع كل احتمال للإنكار بهما، ولا غرو في هذا، فهذه القضية أحد الأصول الثلاثة التي جاءت السور المكية لتؤكدها وتقررها في نفوس المخاطبين الذين كان معظمهم من المشركين، إذ كانوا ينكرون البعث

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٣٩/٢٦.
(٢) المرجع السابق: ٣٤٠/٢٦.

والحساب أشدَّ إنكار، بل يسخرون منه ويستهزؤون به، وآيات القرآن كثيرة في تصوير هذا الموقف المشين.

وحين ننتقل بالنظر إلى خاتمة السورة نلحظ أن الفكرة الرئيسة التي تتمحور حولها الآيات ما هي إلا تأكيدٌ وتقريرٌ لما جاء في المطلع، إذ جاء فيها التأكيد على الدعاء بالويل والثبور والهلاك على الظالمين الذين كفروا بالله، وكذبوا برسوله، وأنكروا البعث، وتهديدهم بيوم الجزاء ولحساب الذي استهزءوا به، واستبعدوا وقوعه، هذا اليوم الذي جاء الإقسام على صدقه وثبوت وقوعه في المطلع.

وقد أشار إلى هذه المناسبة اللطيفة كثير من المفسرين، فهذا الرازي يقول في سياق تفسيره لآخر آية في السورة: "ثم أعاد ما ذكر في أول السورة فقال: ﴿يونس هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل﴾ "[1]، وتأمل قول البقاعي في تفسيره لختام السورة حين يقول: "وقد انطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي لك القسم الأكيد"[2]، ويقف ابن عاشور عند ختام السورة، كاشفاً عن بعض جمالياته، فيقول: "وفي قوله: ﴿الرعد إبراهيم الحجر النحل﴾ مع قوله في أول السورة: ﴿الملك القلم الحاقة﴾ رد العجز على الصدر، ففيه إيذانٌ بانتهاء السورة، وذلك من

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٩٧/٢٨.
(٢) نظم الدرر: ٤٨٣/١٨.

براعة المقطع"[1]، ويلحظ الغماري هذه المناسبة فيؤكد عليها بقوله: "فُتحت السورة بذكر يوم البعث والجزاء، وخُتمت بذكره أيضا: ﴿يُونُسَ هُودَ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ﴾ ، فتناسب مقطعها ومطلعها"[2].

ويمكن أن يُفاد من هذا التناسب في الترجيح بين الآراء التي قيلت في تفسير المقصود باليوم الذي وُعد به الكافرون في ختام السورة، حيث قيل إنه يوم القيامة، وقيل بل هو يوم بدر[3]، وهنا يرى أبو السعود أنَّ لكلِّ قولٍ ما يُرجِّحه، يقول: "و(مِن) في قوله تعالى ﴿الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ﴾ للتعليل، أي: يوعدونه من يوم بدر، وقيل: يوم القيامة، وهو الأنسب بما في صدر السورة الكريمة الآتية، والأول هو الأوفق لما قبله من حيث إنهما من العذاب الدنيوي"[4]، والملاحظ هنا أنه يستدلُّ على كونه يوم القيامة بمطلع الطور الذي يقسم فيه القرآن على أنَّ العذاب واقع ماله من دافع، ومن هنا يمكن أن يُستدلَّ أيضاً على كونه يوم القيامة بمطلع الذاريات الذي أقسم فيه المولى ﷻ على أن ما يُوعد المشركون صادقٌ لا شكَّ فيه، وأنَّ الجزاء

(٣) التحرير والتنوير: ٣٣/٢٧.
(١) جواهر البيان: ١٠٧.
(٢) انظر: لباب التأويل: ١٩٧/٤، مدارك التنزيل: ٣٨١/٣.
(٣) إرشاد العقل السليم: ١٤٥/٨.

والحساب واقعٌ لا محالة، فجاء هذا التناسب بين المطلع والخاتمة مرجحاً لكون المقصود باليوم يوم القيامة.

ولعل من وجوه المناسبة التي تبدو للمتأمل بين المطلع والخاتمة ما يُلحظ بين المقسم عليه في المطلع وبين آية من الآيات الختامية، ويتضح ذلك من كلام المفسرين عن المراد بألفاظ المقسم عليه، فقد ذكروا أنَّ الحاملات هي السحاب تحمل الماء، والجاريات السفن الجارية في البحر بالرياح جريا سهلا، وقيل: الرياح، وقيل: السحاب، والمقسمات هي الملائكة التي تقسم الأمور، وقيل: إنَّ المراد بها الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنها تذرو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار(١)، وأيا كان الصحيح ففي كل هذا تسخير منه ﷻ لعباده بالرزق، ودلالة على قوته وقدرته، وهذا يتناسب مع قول المولى ﷻ: ﴿ ﴾ الذي جاء في ختام السورة.

وبهذا يتضح المقصود الرئيس من السورة، والفكرة الكبرى التي جاءت الآيات لتأكيدها وتقريرها، وهي إثبات البعث والنشور، وتحقيق الجزاء والحساب، وأنَّ ما وُعد به الكفار واقع لا ريب فيه، استعجلوه سخرية واستهزاء أو لم يفعلوا، إذ جاء القسم على ذلك في مطلع السورة، ثم عادت لتؤكد عليه في

---

(١) انظر: فتح القدير: ٥/٩٨.

خاتمتها، ولعل مما يؤكد ذلك أن السورة بكاملها مبنية على هذا المقصد الأساس، وقائمة على هذه الفكرة الرئيسة.

فقد أشارت الآيات إلى الخراصين وعذابهم يوم القيامة، ثم إلى المتقين والنعيم الذي ينتظرهم في ذلك اليوم، ثم شرعت في حكاية بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم، فبدأت بقصة إبراهيم عليه السلام، ثم موسى عليه السلام، ثم عاد، ثم ثمود، ثم نوح عليه السلام، وكشفت عن موقف أولئك الأقوام من دعوة رسلهم، وكيف كانت عاقبتهم، لتفصح عن أنَّ الحق هو المنتصر في النهاية، وأنَّ يوم البعث والحساب آتٍ لا محالة، ولهذا جاء الختام ليؤكد أنَّ للذين ظلموا -من مشركي مكة الذين أنكروا دعوة النبي وسخروا منها وكذبوا بالبعث واستهزؤوا به- مآلاً فيه من العذاب مثل ما حصل لأصحابهم من الأمم الأخرى، وأنَّ المسألة ليست سوى مسألة وقت حتى يقع ما وُعدوا به، وبهذا التحمت أجزاء السورة، وعاد أولها على آخرها، وأكَّد مطلعها خاتمتها، وتقرر صدق ذلك اليوم وحقيقة وقوعه.

سورة الطور:

يقول المولى سبحانه وتعالى في مطلع الطور: ﴿الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية﴾، ويقول جل جلاله في ختامها: ﴿النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم

الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الإنسان المرسلات النبأ النازعات عبس التكوير الانفطار المطففين الانشقاق البروج الطارق الأعلى الغاشية الفجر البلد الشمس الليل الضحى الشرح التين العلق القدر البينة الزلزلة ﴾.

إنَّ الناظر في سورة الطور يجد أنَّ افتتاحها كان قريباً من افتتاح الذاريات، إذ يقسم فيه القرآن الكريم ببعض المخلوقات على وقوع عذاب الله ﷻ، ويؤكد على هذا الوقوع بأنه لا يمكن دفعه مهما حاول المستحق له، وهم المشركون الذين كان الخطاب موجهاً إليهم في المقام الأول، بالنظر إلى ظروف نزول السورة ووقته، يقول الطبري عن جواب القسم في هذا المطلع: "يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿يس الصافات ص الزمر﴾ يا محمد، لكائن حالّ بالكافرين به يوم القيامة... وقوله: ﴿فصلت الشورى الزخرف الدخان﴾ يقول: ما لذلك العذاب الواقع بالكافرين من دافع يدفعه عنهم، فينقذهم منه إذا وقع"(١).

وحين ننظر في خاتمة السورة نرى في الآيات تهديداً مخيفاً ووعيداً رهيباً لأولئك المشركين الذين كفروا بدعوة النبي ﷺ وسخروا من رسالته، من خلال أمره ﷺ بأن يتركهم، فلا يكترث بهم ولا يجهد نفسه في هدايتهم، فسيلاقون يوم القيامة الذي يُصعقون فيه، فيُغمى عليهم من شدة الخوف والهلع الذي

---

(١) جامع البيان: ٣٦١/٢٢

سيصيبهم، فلا ينفعهم كيد كانوا يكيدونه في الدنيا، ولا يجدون ناصراً ومعيناً يمنع عذاب الله عنهم.

وهنا يلتقي أول السورة بآخرها، ويرجع مطلعها على خاتمتها، فثبوت العذاب واستحالة دفعه هي القضية الرئيسة التي يؤكد عليها المشهدان، إذ أقسم عليهما في المطلع، ثم عاد هنا ليؤكد عليهما من جديد، وكأن قوله ﷻ: ﴿يس الصافات ص الزمر﴾ يؤكد قوله: ﴿النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر﴾، وكأن قوله ﷻ: ﴿فصلت الشورى الزخرف الدخان﴾ يؤكد قوله: ﴿الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة﴾، وبهذا التحمت أجزاء السورة الكريمة، وتأكد مقصدها، وتناغمت مشاهدها، وانطبق افتتاحها على اختتامها.

وقد جاءت بقية مشاهد السورة الكريمة دائرةً في هذا الفلك، فبعد الإقسام على وقوع العذاب عرضتْ الآيات مشهداً مخيفاً من مشاهد القيامة تؤكد هذا الوقوع، ثم مشهداً لنعيم المتقين ترغيباً في الإيمان وتجنب العذاب، ثم أفصحت الآيات عن الطريقة التي واجه بها هؤلاء المشركون دعوة نبيهم، وسعتْ إلى إبطال تكذيبهم وإنكار كفرهم بالحجة والبرهان، وهو ما أعاد الآيات إلى ما بدأت به من التهديد والوعيد وتأكيد وقوع العذاب، وأنه حاصل بهم، ولن يمكنهم دفعه ولا النجاة منه، بسبب موقفهم الشنيع من دعوة نبيهم.

وإذا تقدمنا قليلاً في آيات الختام سنجد أنَّ الآية التي بعد هذا تؤكد على أنَّ هؤلاء الظالمين الكافرين سينالون نصيبهم من عذابٍ دنيوي غير عذاب الآخرة، أو أسبق منه، أو أقل إيلاما، وكلها دلالات تحتملها لفظة (دون)، والمقصود به عذاب الجوع في سني القحط، أو عذاب السيف يوم بدر(١)، وفي العدول من الإضمار إلى الإظهار إشارة إلى استحقاقهم العذاب في الدنيا، إذ أشركوا بالله؛ والشرك من أعظم الظلم كما أكده القرآن الكريم.

وهنا يظهر لونٌ آخر من التناسب والانسجام بين أول السورة وآخرها، إذ اتحدا في إثبات جميع أنواع العذاب للكافرين، وتأكيد وقوعه لهم، واستحقاقهم له، فلا شيء سيدفعه عنهم، ولا أحد سيمنعه منهم، وإذا كان هذا في الدنيا فهو في الآخرة أولى وآكد، وكأنَّ السورة جاءت في مطلعها وخاتمتها لتبعث في نفوس الكفار اليأس من النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي، ومع كل هذا فإنَّ أكثرهم لا يخطر ببالهم أنه واقعٌ بهم، لما هم فيه من البطر والزهو، ولما بهم من الحسد والكِبْر.

ولعل السيوطي قد أدرك الجمالية الأولى حين ربط بين آية العذاب المقسم عليه في المطلع وبين الآية ٤٧، إذ يقول: "بُدئت بقوله: ﴿سُورَةُ الصَّافَّاتِ ضَ الزُّمَرِ﴾ ، وخُتمت بقوله: ﴿نُوحٌ الْجِنُّ الْمُزَّمِّلِ

(١) انظر: أنوار التنزيل: ١٥٦/٥.

﴿ المُدَّثِّر القِيَامَة الإنسَان ﴾ "[1]، بينما فضَّل الغماري ربط آية العذاب بالآيتين ٤٥ و٤٦، يقول: "ذكر في فاتحة السورة وعيد الكفار بأنَّ العذاب واقع بهم يوم القيامة، وذكر في خاتمتها مثل ذلك... فتناسب فيها المقطع والمطلع"[2].

وقد استدعى هذا التهديد بوقوع العذاب وثبوته واستحالة دفعه تطمينَ قلب رسول الله ﷺ، وتهدئة نفسه، خاصة بعدما أفصحتْ الآيات عمَّا لاقاه منهم من اتهامات وسخرية، وما وجده منهم من استهزاء وتكذيب، فأُمر بالصبر، ووُعد بالحفظ والرعاية، ووُجِّه بتسبيح ربه وتنزيهه عما لا يليق مما زعمه أولئك المشركون.

ولعل استدعاء هذا التطمين يكشف عن جمالية أخرى من جماليات التناسب بين الخاتمة والمطلع، حيث يظهر بينهما نوع من التضاد والتقابل، فهناك إقسام بوقوع العذاب، وتأكيد على استحالة منعه ودفعه، يحيط بذلك جو رهيب من التهديد والوعيد، وهنا تطمين للرسول ﷺ، وتهدئة لقلبه وروحه، وتسبيح وتنزيه للمولى ﷻ، في جو إيماني يفيض هدوءا وطمأنينة، وهنا تتكشف المفارقة، ويبرز الاختلاف، ويظهر للمتلقي تفاوت المآلات، ويدرك كيف أنَّ عاقبة موقف المشركين من الإيمان

---

(٢) مراصد المطالع: ٦٧.
(٣) جواهر البيان: ١٠٧.

وخيمة، وكيف أنَّ المولى ﷻ سيحفظ نبيه ﷺ، ويمن عليه بالنصر والتمكين.

ويمكن أن يلحظ المتأمل جمالية أخرى بين المطلع وهذه الآيات الختامية، وذلك أنَّ التوجيهات الإلهية والعبادات الربانية التي أمر بها القرآن الكريم النبي ﷺ في ختام السورة تمنع من ذلك العذاب المقسم على وقوعه، يقول البقاعي مشيراً إلى هذه الجمالية في سياق تفسيره لختام السورة: "أي: وسبحه في وقت إدبارهم، أي إذا أدبرتْ، وذلك من آخر الليل في نصفه الثاني، وكلما قارب الفجر كان أعلى، وبالإجابة أولى، وإلى قرب الفجر تشير قراءة الفتح، جمع دابر، أي: في أعقابها عند خفائها أو أفولها، وذلك بصلاة الفجر سنة وفرضاً أحق وأولى؛ لأنه وقت إدبارها حقيقة، فصارت عبادة الصبح محثوثاً عليها مرتين؛ تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها، فإنَّ ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبُعده عن الطائع السالم"[1]. وكأنَّ القرآن أراد أن يعيد الأمل والأمن بعد ذلك اليأس والخوف الذي قد يدب في القلوب حين تسري إلى الأسماع تلك الأقسام الأكيدة بوقوع العذاب، فتأتي هذه

(١) نظم الدرر: ٣٩/١٩.

التوجيهات الهادئة لتبعث في النفوس الأمان والاطمئنان بالنجاة من هذا العذاب الواقع، إذا آمنتْ وصبرتْ وامتثلتْ لهذه الأوامر والتوجيهات.

سورة النجم:

يقول المولى ﷻ في مطلع سورة النجم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صدق الله العظيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَى: ﴾﴾، ويقول ﷻ في خاتمة السورة: ﴿﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَة آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَة الأَنْعَام الأَعْرَاف الأَنْفَال التَّوْبَة يُونُس هُود يُوسُف الرَّعْد إِبْرَاهِيم الحِجْر النَّحْل الإِسْرَاء الكَهْف مَرْيَم طٰهٰ الأَنْبِيَاء الحَجّ المُؤْمِنُون النُّور الفُرْقَان الشُّعَرَاء النَّمْل القَصَص العَنْكَبُوت الرُّوم لُقْمَان ﴾﴾.

من يتأمل في مشهدي الافتتاح والاختتام لهذه السورة الكريمة يلحظ أنهما لا يختلفان عن البقية من جهة تناسبهما وانسجامهما، فبينهما أنواع من الوشائج والصلات التي تؤكد حرص القرآن الكريم على تناغم مطلع السورة مع مقطعها، وتناسب أولها مع آخرها، حتى صار ذلك النوع من التناسب ملمحاً من ملامح إعجاز القرآن البلاغي.

ولعل أولى هذه الوشائج اشتراك المشهدين في الحديث عن النبي ﷺ، وإثبات نبوته وصدق رسالته، وهو الأصل الثاني من الأصول الثلاثة الرئيسة التي جاءت السور المكية لترسيخها وتثبيتها في قلوب المشركين، الذين كان الخطاب موجهاً إليهم

في المقام الأول في هذه الفترة، إذ جاء في المطلع الإقسام على صدقه ﷺ، فهو بريء من الضلال والغواية، يستحيل أن ينطق إلا بأمر ربه ووحيه، لا عن هوى وشهوة.

ثم تأتي الخاتمة لتؤكد هذه الحقيقة المهمة، ولكن من جهة أشد خوفاً ورعبا، من خلال الإفصاح عن إحدى الوظائف التي أُرسل من أجلها، وهي النذارة والتخويف من العقاب الأليم الذي سيحل بالمشركين المكذبين، ولا شك أنَّ اختيار هذه الوظيفة دون غيرها من الوظائف التي كُلف بها النبي ﷺ يتناسب مع موقف المشركين المعاند، وينسجم مع جو المشهد السابق، الذي يكشف عن إهلاك بعض الأمم السابقة، بسبب كفرهم وتكذيبهم بما جاءت به رسلهم.

ومع أنَّ العلماء لم يفصِّلوا في هذه العلاقة، إلا أنَّ هذا لا يعني أنهم لم يشيروا إليها ولو بإيجاز، يقول البقاعي: "ولما تم الكلام على هذا المنهاج البديع، والنمط الرفيع، في حسان البيان للمواعظ، والشرع، والقصص القديمة، والإنذار العظيم التام، على وجه معجز من وجوه شتى، أنتج قوله مرغباً مرهباً خاتماً السورة بما بدأ هنا به من ذكره ﷺ: (هذا)"[1]، ويقول الغماري: "فُتحت السورة بالحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام كما

(١) نظم الدرر: ٨١/١٩، وانظر: البحر المحيط: ٢٨/١٠.

مر، وخُتمت بالحديث عنه أيضا: ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَة آلِ عِمْرَانَ﴾، فتناسب مطلعها ومقطعها"[1].

ولم يستثمر الرازي هذه المناسبة للترجيح بين الأقوال الثلاثة التي أوردها في معنى النذير، وظل متردداً بين القولين الأخيرين مستبعداً الأول، يقول في (هذا نذير): "فيه وجوه أحدها: محمد ﷺ من جنس النذر الأولى، ثانيها: القرآن، ثالثها: ما ذكره من أخبار المهلكين... وعلى قولنا: المراد محمد ﷺ فالنذير هو المنذر... وكون الإشارة إلى القرآن بعيدٌ لفظا ومعنى، أما معنى: فلأنَّ القرآن ليس من جنس الصحف الأولى؛ لأنه معجز وتلك لم تكن معجزة، وذلك لأنه تعالى لما بين الوحدانية وقال: ﴿﴾﴿﴾﴿﴾ قال: (هذا نذير..)، إشارةً إلى محمد ﷺ وإثباتاً للرسالة، وقال بعد ذلك: ﴿المَائِدَة الأنعَام﴾ إشارةً إلى القيامة، ليكون في الآيات الثلاث المرتبة إثبات أصول ثلاث مرتبة، فإنَّ الأصل الأول هو الله ووحدانيته، ثم الرسول ورسالته، ثم الحشر والقيامة"[2].

وإذا كان الرازي يستدل على كون المقصود بالنذير النبي ﷺ باكتمال الأصول الثلاثة فإن هذه المناسبة دليل آخر يؤكد هذا القول، فهذا النذير هو المقسَم على صدقه في أول السورة

(٢) جواهر البيان: ١٠٨.
(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨٥/٢٩.

الكريمة، وصاحبكم هذا الذي ما ضلَّ ولا غوى ولا ينطق عن الهوى هو النذير الذي جاء لينذركم من العذاب الأليم إن لم تؤمنوا.

ومن وجوه الانسجام والتناغم التي أشار إليها بعض العلماء ذلك التناسب في الحقل الدلالي الخاص بالكون وما فيه من كواكب، إذ آثر القرآن الكريم النجم في المطلع للإقسام به على إثبات نبوته ﷺ والتأكيد على صدق دعوته، بينما نجد في خاتمة السورة إشارة إلى كوكب نجمي في سياق الحديث عن قدرة المولى ﷻ وقوته، وهو الشِّعرى الذي جاء في قوله ﷻ: ﴿الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴾ ، فحصل نوعٌ من المناسبة بين المطلع والمقطع.

يقول السيوطي مشيراً إلى هذه الجمالية في سياق حديثه عن سورة النجم: "بُدئت بالنجم، وهو الثريا، وخُتمت بذكر الشِّعرى، وهي نجم"[١]، والحقُّ أنَّ تفسيره للنجم بالثريا هو قولٌ لبعض المفسرين[٢]، كما ذهب بعضهم إلى أن المراد به الشعرى، وهو ما يجعل التناسب بين المشهدين أكثر انسجاما[٣]، أما معظمهم فرأوا أنَّ المراد به النجوم مطلقا، من إطلاق الواحد وإرادة الجمع، كما في قوله ﷻ: ﴿الْمُلْكِ الْقَادِرِ الْحَاقَّةِ الْمَعَارِجِ﴾ (القمر:

(١) مراصد المطالع: ٦٨.
(٢) انظر: جامع البيان: ٤٠/٢٧، الدر المنثور: ٦٤٠/٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٨٩/٢٧.

٤٥)، أي الأدبار[١]، أما الشِّعرى فهو اسم نجم نيِّر، يطلع عند شدَّة الحر[٢].

ويمكن للمتأمل في مشهدي الافتتاح والختام في السورة أن يضع يده على مزيد من هذه الجماليات التي توثق العلاقة بين المشهدين، فمنها ما لاحظته من دلالات الهوي والسقوط هنا وهناك، ففي المطلع يقسم القرآن بالنجم في هيئة خاصة وهي الهوي، وهو سقوطه أو غروبه، وتخصيصه بهذه الحال في أصح الأقوال فيه "احتراس من أن يتوهم المشركون أن في القسم بالنجم إقرارا لعبادة نجم الشعرى، وأن القسم به اعتراف بأنه إله، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها... فيكون قوله: (إذا هوى) إشعارا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله، مسيرة في نظام أوجدها عليه، ولا اختيار لها، فليست أهلا لأن تُعبد"[٣].

ونرى هذا السقوط أو الاختفاء يتجدد ذكره في ختام السورة، بنفس الصيغة، ولكن في سياق آخر، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ ﴾ ، وهي مدائن لوط، "أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض"[٤]، ثم أُتبعوا

(١) انظر: أضواء البيان: ٦٩٩/٧.
(٢) انظر: الأنواء: ٤٦، لسان العرب: (شعر)، وانظر: مراصد المطالع: ٦٨ (حاشية ٢، ٤).
(٣) التحرير والتنوير: ٩١/٢٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٢٠/١٧.

حجارة وهي التي غشَّاها الله تعالى[1]، وقد جاء هذا التصوير في سياق التخويف من المولى ﷻ، والكشف عن بعض الأمم السابقة التي كفرتْ برسلها وكذَّبتْ بدعواتهم.

والشاهد هنا التناسب بين الصيغتين، إذ عمد القرآن إلى استخدام (هوى) في المطلع و(أهوى) في الخاتمة، وبمعنى متشابه، وقد جاء كلاهما في سياق إثبات قدرة الله ﷻ وقوته وقهره، فضلا عن مجيء كل واحد من اللفظين فاصلة للآية الكريمة.

كما أنَّ من الجماليات التي يمكن أن تظهر للمتأمل في المشهدين التشابه في الموضوع والتناسب في الفكرة، وهي إثبات النبوة وصدق الدعوة والإنكار على المشركين الذين كذبوا رسولهم، مع توجيه الخطاب في كل ذلك إليهم مباشرة، ففي المطلع يقسم لهم أنَّ صاحبهم صادق في دعوته، لا ينطق إلا بوحي من الله، ثم يعود في الخاتمة ليؤكد لهم هذه الفكرة، ولكن بطريقة أخرى، من خلال الإنكار عليهم التعجُّب والسخرية من الوحي الإلهي الذي جاء به صاحبهم الصادق، والضحك وعدم البكاء والخشية واللهو عنه وعدم التفكر فيه.

ثم إنَّ الآية الأخيرة في السورة أمرت بالسجود لله ﷻ والعبادة له وحده، وهذا يتصل اتصالاً وثيقا بأول السورة، وكأنَّ

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٢٠٩/٥.

هذا الأمر نتيجةٌ للتسليم بتلك الحقيقة المقسم عليها هناك، فالسجود والعبادة ما هي إلا أوامر إلهية جاء بها صاحبكم، لم تكن من تلقاء نفسه أو عن هواه، إنما هي وحيٌ يوحى إليه، ولعل هذا ما قصده البقاعي حين قال: "ولما حثَّ على السمود، فسَّره مسبباً عن الاستفهام ومدخوله قوله: (فاسجدوا)، أي: اخضعوا خضوعاً كثيراً بالسجود الذي في الصلاة (لله) أي: الملك الأعظم، (واعبدوا) أي: بكل أنواع العبادة، فإنه (ما ضلَّ صاحبكم) عن الأمر بذلك (وما غوى)... وقد ظهر أنَّ آخرها نتيجة أولها، ومفصلها ثمرة موصلها"[1].

سورة القمر:

تُفتتح سورة القمر بقوله ﷻ: ﴿التَّغَابُنِ الْأَحْزَابِ سَبَإٍ فَاطِرٍ يسٓ الصَّافَّاتِ صٓ الزُّمَرِ غَافِرٍ فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُفِ الدُّخَانِ الْجَاثِيَةِ الْأَحْقَافِ مُحَمَّدٍ الْفَتْحِ الْحُجُرَاتِ قٓ الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ الْمُلْكِ﴾، وتُختتم بقوله ﷻ: ﴿﴾﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صدق الله العظيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾﴾.

نظر العلماء الذين اهتموا بهذا النوع من المناسبة إلى (الساعة) بوصفها من أهم الوشائج التي تربط فاتحة القمر

(١) نظم الدرر: ٨٥/١٩.

بخاتمتها، وهي في المشهدين مقصود بها القيامة، إذ جاءت في المطلع للإفصاح عن اقتراب موعدها بظهور علامة من علامات وقوعها، وهي انشقاق القمر، بينما جاءت في الختام للتأكيد على أنها الموعد الذي سيلقى فيه المشركون جزاءهم، ويواجهون مآلهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿الْحَقَّةُ الْمُزَّمِّلُ الْمُدَّثِّرُ الْقِيَامَةُ الْإِنسَانُ الْمُرْسَلَاتُ﴾ ، وكلاهما جاء في سياق التخويف والتهديد، وفي جو من الترهيب والوعيد، ومع أنَّ ترتيب هذه الآية كان ٤٦ من مجموع آيات السورة البالغ عددها ٥٥ آية، إلا أن العلماء عدوها من الختام.

يقول السيوطي في سياق إشارته إلى تناسب مطلع القمر ومقطعها: "بُدئت باقتراب الساعة، وخُتمت بقوله: ﴿الْحَقَّةُ الْمُزَّمِّلُ الْمُدَّثِّرُ﴾ "[1]، ويقول الغماري: "فُتحت السورة بذكر الساعة كما مرَّ آنفا، وخُتمت بذكرها أيضا: ﴿الْحَقَّةُ الْمُزَّمِّلُ الْمُدَّثِّرُ الْقِيَامَةُ الْإِنسَانُ الْمُرْسَلَاتُ﴾ ، فتناسب المطلع والمقطع"[2].

أما البقاعي فقد زاد على هذا، رابطاً بين ذكر الساعة في الختام وما ورد بعد ذلك من عذاب المجرمين وثواب المتقين، ومشيراً إلى جماليات إيثار صفته ﷻ المليك المقتدر بالختام، يقول: "ولقد خُتمت السورة كما ترى كما ابتدئت به من أمر

(١) مراصد المطالع: ٦٨.
(٢) جواهر البيان: ١١٠.

الساعة، وكانت البداية للبداية والنهاية للنهاية، وزادت النهاية بيان السبب الموجد لها، وهو قدرته سبحانه وعز شأنه وعظمت رحمته وإحسانه وعفوه ومغفرته ورضوانه، ولتصنيف الناس فيها إلى كافر مستحق للانتقام، ومؤمن مؤهل لغاية الإكرام، لم يذكر الاسم الأعظم الجامع الذي يذكر في سياق مقتضى جمع الجلال والإكرام لصنف واحد، وهو من يقع منه الإيمان ولا يتدنس بالعصيان، وهم الذين آمنوا... ولهذا خُتمت هذه بصفة الملك المقتضي للسطوة التامة، والإكرام البالغ، وعدم المبالاة بأحد كائناً من كان؛ لأنَّ الملك من حيث هو ملك إما يقتضي مقامه إهانة العدو وإكرام الولي، وجعل ذلك على وجه المبالغة أيضاً، كلُّ ذلك للإعلام بأنَّ تصريفه سبحانه لأحوال الآخرة كما قصد في هذه السورة من تصريفه في أحوال الدنيا من إهلاك الأعداء وإنجاء الأولياء"[1].

ثم إنَّ اختيار اسمه ﷻ المليك المقتدر ليكون ختاماً للسورة الكريمة يتسق مع ما افتتحت به من إعلان اقتراب الساعة، وقدرته على شق القمر، فهو ذو القدرة الباهرة والقوة القاهرة، كما ينسجم مع الإخبار عن تكذيبهم المتكرر بكل ما جاء به نبيهم من بينات، وكأن هذا الاسم يُشعر بالهزء بهم، والسخرية من موقفهم القبيح، إذ كيف يكفرون بالنبي وهو مرسل من عند

(١) نظم الدرر: ١٣٧/١٩.

مليك متصرف بكل المآلات، مقتدر لا يعجزه عقابهم، ولن يمنعه شيء من تعذيبهم إن هم أصروا على موقفهم، وظلوا على صدودهم.

ثم إنَّ الآيات في ختام القمر يسيطر عليها جو من التخويف والتهديد، إذ يتوعد القرآن المجرمين بالنار، ويهدد المشركين بأنه سيُفعل بهم كما فُعل بأشياعهم، وأنَّ مواقفهم المشينة مع دعوة نبيهم مرصودة مثبتة، وهذا الجو يتناسب مع مطلع السورة الذي يفيض وعيداً وتخويفا، ففيه تهديدٌ وتخويفٌ باقتراب وقوع القيامة، من خلال ظهور إحدى علاماتها، وتصويرٌ لخروج المشركين من القبور خائفين مرعوبين منتشرين كالجراد، يمشون مادي أعناقهم ذعراً وفزعاً مما سيلاقيهم في هذا اليوم الذي أيقنوا أنه سيكون طويلاً عسيراً عليهم.

أضف إلى هذا أنَّ القرآن الكريم أكد في مطلع السورة الكريمة على قضية البلاغ، وأنه قد جاء المشركين من النذارة والتهديد ما يفترض معه أن يرتدعوا عن غيهم، ويؤمنوا بدعوة نبيهم، لكنهم أعرضوا عنه واتهموه بالسحر، وقد عادت هذه القضية مرة أخرى لتؤكد عليها السورة في خاتمتها، حين أشارت الآيات إلى إهلاك الأمم السابقة، داعية إلى أخذ العبرة والعظة من مآلاتهم، ولعل هذه القضية هي الرئيسة التي قامت عليها السورة، بدليل أن ما بين المطلع والختام إشارات متعددة

عن موقف الأقوام السابقة مع أنبيائهم، وما حلَّ بهم من أنواع العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم.

أما ذكر المتقين في ختام السورة وما ينتظرهم من نعيم مقيم وحظوة عظيمة عند ربهم فيتناسب مع المطلع من وجه آخر، إذ يكون بين المشهدين علاقة التقابل والتضاد، مما يبرز معه عمق المفارقة التي تبعث في النفوس أقوى الأثر وأبلغ الاعتبار، ففي المطلع كان جو التهديد والتخويف كما تقدَّم، وفيه عرضٌ لموقف المشركين من الدعوة وحالهم يوم القيامة، وحين قُرِّر ذلك ناسب أن يُكشف عن مآل المتقين الذين آمنوا بدعوة نبيهم، وصدقوا بما جاء به من الأنباء والنذر، وكأن السورة الكريمة لم ترد أن تكتفي بتخويف المشركين باقتراب القيامة والتذكير بإهلاك الأمم التي أشبهتهم في الموقف مع من أرسل إليهم، بل أرادت أن تعمق من نتائج هذا البلاغ، وتفصح لهم عن مآل من اتخذ عكس موقفهم، وما ينتظرهم من جنات وأنهار، في وقت يجد المجرمون أنفسهم في ضلال وسعر.

سورة الرحمن:

تبدأ سورة الرحمن بقوله ﷻ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾ ، وتختتم بقوله ﷻ: ﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾ ، بعد أن فصَّلتْ الآيات فيما يستحقه أهل الجنة من ألوان النعيم المقيم.

وأول ما يمكن ملاحظته من مناسبة بين المطلع والختام هو الاتفاق في ذكر صفات الله ﷻ، والتشابه في تسبيحه وتنزيهه، مما جعل الجو في المشهدين يفيض رهبة وجلالاً، وينسجم هدوءاً وطمأنينة، يقول السيوطي مشيرا إلى هذه المناسبة: "افتُتحت باسم الله ﷻ، وخُتمت به في قوله: ﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾"(١).

وقد تنبه القرطبي قبل ذلك إلى هذه المناسبة، غير أنه كان أكثر تفصيلاً ودقة في بيانها، كما أنه حرص على الكشف عن طريقة تسلسل المعاني في السورة، وكيف أنها بدأتْ باسمه ﷻ وانتهتْ به، يقول في سياق تفسيره للصفات المختوم بها: "وكأنه يريد الاسم الذي افتتح به السورة، فقال: (الرحمن) فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه ﴿ ﴾ ، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها

(١) مراصد المطالع: ٦٩، وانظر: نظم الدرر: ١٩٤/١٩، لوامع البينات: ١٢٥.

بصفة الجنان، ثم قال في آخر السورة: ﴿ ﴾، أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يعلمهم أنَّ هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم، وخلقتُ لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار، فهذا كله لكم من اسم الرحمن، فمدح اسمه ثم قال: (ذي الجلال والإكرام) جليل في ذاته، كريم في أفعاله"[1].

ثم إنَّ الآيات الختامية كانت في سياق وصف ما أعده الله ﷻ للمؤمنين المتقين الذي خافوا مقامه وأحسنوا الظنَّ به، وقد أفاضتْ الآيات في ألوان النعيم المقيم، وفصَّلتْ في أنواع الثواب الذي ينتظرهم في الجنة، وكان الجو في غاية الهدوء والطمأنينة، وقد انسجمت هذه المشاهد الختامية مع المشهد الافتتاحي الذي يفيض رحمة وسكونا، ويشير إلى النعم التي امتن بها على الإنسان، من رحمةٍ وخلقٍ وتعليمٍ للقرآن والبيان.

سورة الواقعة:

تُفتتح سورة الواقعة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة، يقول المولى ﷻ: ﴿ ﴾ ، تلا ذلك تقسيم الخلق إلى ثلاثة أزواج، وتُختتم بقوله ﷻ: ﴿ ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٩٣/١٧، وانظر: حاشية زاده: ٧٤/٨، ٧٥.

، وذلك بعد أن ذكرتْ الآيات مآلات الأزواج الثلاثة وما ينتظرهم من ثواب أو عقاب.

وتبدو بين فاتحة السورة وخاتمتها مجموعة من العلاقات والوشائج التي تؤكد اهتمام القرآن الكريم بهذا النوع من المناسبات، لعل أبرزها وأوضحها التناسب في ذكر الأزواج الثلاثة، إذ بدأت السورة بذكر هذه الأزواج الثلاثة التي سيصنف الخلق إليها حين تقع الواقعة، وشرعت في تفصيل أحوالهم ومآلاتهم، ثم عادت مرة أخرى في الختام لتقرر هذه النتائج، فكررت الآيات الأزواج الثلاثة، وأكدت ما يستحقونه يوم القيامة من ألوان النعيم أو العذاب، ولكن بعرض موجز، وإشارات مختصرة.

يقول السيوطي في إشارة موجزة لهذه المناسبة، في سياق حديثه عن تناسب المطلع والمقطع في سورة الواقعة: "صُدِّرتْ بذكر أزواج الخلق الثلاثة؛ أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون، وخُتمت بمثل ذلك في قوله: ﴿ ﴾ ﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَة ﴾ "[1]، وإلى المناسبة نفسها أشار الغماري[2]، وإذا كان بعضهم قد اكتفى بإشارات موجزة لهذا التناسب فإن من المفسرين من زاد وأفاض وحاول أن يستجلي هذه الجماليات بالتفصيل.

---

(١) مراصد المطالع: ٦٩.
(٢) جواهر البيان: ١١٢.

فهذا البقاعي يكشف عن الأبعاد الدلالية والجمالية لهذه المناسبة بين مطلع الواقعة ومقطعها، يقول في سياق حديثه عن التناسب بين الآيتين الأخيرتين: "ولما تحقَّق له هذا اليقين، سبَّب عنه أمره بالتنزيه له سبحانه عما وصفوه به، مما يلزم منه وصفه بالعجز، بعد تقسيمه للأزواج الثلاثة على طريق الإيجاز كما أمره بذلك بعد الفراغ من تقسيمهم على طريق الإطناب؛ إشارةً إلى أنَّ المفاوتة بينهم مع ما لهم من العقول من أعظم الأدلة على الفعل بالاختيار وعلى فساد القول بالطبيعة"[1].

ويضيف البقاعي كاشفاً عن مزيد من جماليات هذا التناسب البديع بين المشهدين، ومفصحاً عن تناسب خاتمتها مع مطلع ما بعدها: "وقد انطبق آخر السورة على أولها في الإخبار بالبعث، وتصنيف الخلائق فيه إلى الأصناف المذكورة في أولها أيَّ انطباق، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أيَّ اعتناق، واتفق مع أول التي بعدها أيَّ اتفاق، وطابقه أجلَّ طباق، وخُتمت بصفتي الرحمة والعظمة، وجلَّت عن الاسم الجامع كاللتين قبلها لما ذكره في أواخر القمر من أنه لم يذكر في واحدةٍ من الثلاث أحد من أهل المعصية المصاحبة للإيمان، ليخاطب بالاسم الجامع للإهانة والإحسان، وإنما ذكر أهل الكفران المستوجبين للهوان

(٣) نظم الدرر: ٢٤٨/١٩.

بالخلود في النيران، وأهل الإيمان المتأهلين للإحسان بتأبيد الإمكان في أعلى الجنان"[1].

والمتأمل في هذا التناسب يلحظ فيه مزيد تشويق للقارئ، وحثاً على متابعة آيات السورة، حتى إذا بلغ إلى الختام عرف جزاء فريق، وأدرك أن طبيعة أعمالهم ستنعكس حتماً على جزائهم يوم القيامة، ثم إن هذا الانسجام يشعره بشيء من الخوف والترقب، حتى تصل الآيات إلى الختام، فتكشف له بوضوح عن مصير كل فريق، وهو ما يزيد من تناغم السورة الكريمة وتماسكها واتساق أجزائها.

ويقول صاحب التحرير ساعياً إلى الكشف عن مزيد من العلاقات والوشائج: "لما اقتضى الكلام بحذافره أنَّ الإنسان صاحب الروح صائرٌ إلى الجزاء فرَّع عليه إجمال أحوال الجزاء في مراتب الناس إجمالاً لما سبق تفصيله بقوله: ﴿الْفُرْقَانَ الشُّعَرَاءَ النَّمْلَ﴾ إلى قوله: ﴿الْوَاقِعَةَ الْحَدِيدِ الْحَاقَّةَ الْحَشْرِ﴾؛ ليكون هذا فذلكةً للسورة، ورداً لعجزها على صدرها، فضمير (إن كان) عائدٌ إلى ما عاد إليه ضمير (إليه) من قوله: ﴿الرَّجِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ﴾، والمقربون هم السابقون الذين تقدَّم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُفِ الدُّخَانِ الْجَاثِيَةِ الْأَحْقَافِ﴾، وأصحاب اليمين قد تقدَّم، والمكذبون الضالون هم أصحاب الشمال المتقدم

(١) نظم الدرر: ٢٤٩/١٩.

ذكرهم، وقد ذكر لكلِّ صنفٍ من هؤلاء جزاءً لم يُذكر له فيما تقدَّم، ليُضمَّ إلى ما أُعِدَّ له فيما تقدَّم، على طريقة القرآن في توزيع القصة"[1].

ومن صور التناسب التي يمكن أن تلحظ بين مطلع الواقعة وخاتمتها ذلك الجو المخيف المرعب الذي يشعر به المتلقي، والتهديد والوعيد الذي يلف آيات المشهدين، ففي المطلع تصوير مخيف لقيام الساعة، ذلك القيام الذي لا يمكن لأحد الشك فيه إذا وقع، وكشف للتغيرات الكونية التي تصيب الكون من خفض ورفع ورج للأرض وتفتيت للجبال، وقد جاءت الخاتمة لتناسب هذا الجو، إذ كان الحديث عن المكذبين الضالين وما ينالهم من حميم وتصلية جحيم في نهاية للأزواج الثلاثة، ولعل القرآن الكريم عمد إلى تأخير الحديث عن هذا الفريق لتتناسب أجواء التخويف والترهيب التي تصاحبه، وينسجم ما يُشعر به من وعيد وتهديد مع جو أول السورة الكريمة.

أضف إلى هذا ما بين المشهدين من تناسب صوتي، وانظر إلى تكرار حرف القاف في المطلع (وقعت) (الواقعة) (لوقعتها)، وإلى تكراره في الخاتمة (حق) (اليقين)، وتأمل ما يُشعر به -بما له من خصائص صوتية- من شدة وقوة ناسبت الجو في المشهدين، وأسهمت في زيادة انسجامهما وتناغمهما.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٤٧/٢٧.

ولعل من ملامح التناسب بين المطلع والمقطع مجيء الثاني منها بصورة الأمر الناتج عن الخبر في الأول، أي ترتب الخاتمة على الافتتاح، وكأنَّ القرآن الكريم أراد أن يلفت بهذا التناسب إلى توجيه مهم للنبي ﷺ ولمن بعده من المؤمنين، وهو الاستعداد لهذا اليوم، والعمل لأجل الفوز فيه، فهو يقول: إذا آمنتَ بوقوع الواقعة، وأيقنتَ بحدوث هذه الأمور العظام، وعلمتَ بتقسيم الخلق إلى هذه الأزواج الثلاثة حسب أعمالهم في الدنيا، فاستعد لكلِّ ذلك، بتسبيح ربك وتنزيهه، ربك العظيم القادر على كل شيء، حتى تكون من الفرق الناجية في ذلك اليوم المخيف.

سورة الحديد:

وهي آخر سور هذا الجزء، وتفتتح بقوله ﷻ: ﴿الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الإنسان المرسلات النبأ النازعات عبس التكوير﴾ ، وتختتم بقوله ﷻ: ﴿لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الإنسان المرسلات النبأ﴾.

إن الناظر في مطلع سورة الحديد والمتأمل في خاتمتها يلحظ عدداً من صور المناسبة التي تربط المشهدين، وتسهم في انسجامهما، مما جعل السورة -كغيرها من سور القرآن وبسبب هذا النوع من المناسبات- تبدو ككلمة مفردة، وتظهر كفكرة واحدة، قد رجع آخرها على أولها، وانطبق مقطعها على مطلعها.

ولعل أول ما يظهر من صور التناسب بين المشهدين ذلك الجو المهيب والسياق الجليل؛ بسبب ما تضمناه من تسبيحٍ للمولى ﷻ وتنزيهٍ له ﷻ، وذكرٍ لبعض أسمائه وصفاته، والثناء عليه ﷻ وتأكيدٍ على قوته وقدرته وإحاطته بكل شيء، إذ بدأت السورة بخبر عظيم جليل، يتضمن خضوع مخلوقات السماء والأرض جميعا لله ﷻ من خلال تسبيحه وتنزيهه، إذ هو مالكهما، بيده الحياة والموت، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، المتفرد بصفات الكمال والجلال.

ثم تسير السورة في موضوعات متعددة تؤكد جميعا على هذه الفكرة الرئيسة التي بدأت بها السورة وتخدمها من زوايا متعددة، حتى يأتي الختام الذي تعود فيه الآيات الكريمة إلى ما بدأت به السورة من تعظيم له ﷻ، وإثبات لبعض صفاته الجليلة التي لا تليق إلا به ﷻ، وتؤكد كمال قدرته وواسع فضله وعظيم رحمته ومغفرته.

يقول البقاعي مفصلاً في تفسيره للجملة الأخيرة من السورة: "(والله) أي: الذي أحاط بجميع صفات الكمال (ذو الفضل العظيم) أي: مالكه ملكاً لا ينفك عنه، ولا ملك لأحد فيه معه، ولا تصرف بوجه أصلاً، فلذلك يخص من يشاء بما يشاء، فلا يقدر أحد على اعتراض بوجه، فقد نزه له التنزيه الأعظم جميع ما في السماوات والأرض، فهو العزيز الحكيم الذي لا عزيز غيره ولا حكيم سواه، فقد انطبق كما ترى آخرها على أولها، ورجع مفصلها على موصلها"[1].

ويوجز الغماري في إشارته لهذا التناسب فيقول: "فُتحت السورة بالثناء على الله تعالى حسبما مر، وخُتمت به أيضا: ﴿ الدُّخَانِ الْمُلْكِ الْقَلَمِ الْحَاقَّةِ الْمَعَارِجِ نُوحٍ الْجِنِّ الْمُزَّمِّلِ الْمُدَّثِّرِ الْقِيَامَةِ الْإِنْسَانِ الْمُرْسَلَاتِ ﴾ ، وهو تناسبٌ بين مطلعها ومقطعها"[2].

ومن جماليات التناسب التي حفل بها المشهدان ما اتفقا في الإشارة إليه من توجيهات إلهية للخلق بوجوب الإيمان بالله ﷻ الذي كفر به مشركو الأمم الماضية ممن أشارت إليهم السور السابقة، ووجوب الإيمان برسوله ﷺ والتصديق بدعوته، في وقتٍ كذَّب به المشركون والمنافقون، وبيان ما يترتب على هذا الإيمان من مغفرة وأجر كبير، يقول ﷻ في مطلع السورة: ﴿

(١) نظم الدرر: ٣٣٠/١٩.
(٢) جواهر البيان: ١١٤.

المائدة الأنعام الأعراف الأنفال التوبة يونس هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل الإسراء الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص ﴾ ، ويقول ﷻ في ختام السورة وفي ذات الموضوع: ﴿لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة الإنسان المرسلات النبأ ﴾.

ومما يمكن ملاحظته من تناسب بين مطلع السورة وخاتمتها ذكر النور الذي يُقصد به في القرآن الإيمان والنجاة والفوز، وكأنه يضيء الطريق للوصول إلى ما تنعم به النفوس، وتطمئن له القلوب، ففي المطلع نرى قوله ﷻ: ﴿الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد ﴾ ، وفي الخاتمة يتكرر ذكر هذا النور، ولكن في سياق آخر مختلف، يقول ﷻ: ﴿لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم ﴾ ، والمتأمل هنا يلحظ أن هذا النور من أبرز موضوعات السورة، ففي منتصفها يتكرر ذكر النور في سياقات متنوعة، ففي الوقت الذي يُرى نور المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم وبأيمانهم

يوم القيامة، يخبر القرآن عن حسرة المنافقين والمنافقات الذين تحيط بهم الظلمات، فيطلبون من الذين آمنوا في يأس وندم قبساً من هذا النور، كما تؤكد الآيات في سياق آخر أنَّ الصديقين والشهداء الذين آمنوا بالله ورسله سينالون الأجر والنور بينما تصلى الجحيم المكذبين الكافرين.

وقد تنبه السيوطي إلى هذه المناسبات الثلاث، فأشار إليها بإيجاز، تاركاً للقارئ اكتشاف الآيات المقصودة، يقول عن سورة الحديد: "بُدئت بوصف الله وخُتمت به، وفي صدرها: ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ، وفي آخرها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ، وفي صدرها ذكر النور، وفي آخرها ذكر النور"[1].

ولعل من أهم المعاني التي أراها مشتركةً بين المطلع والمقطع معاني القوة القاهرة والقدرة المطلقة، فهذه الصفات تحديدا من أبرز الصفات التي أكد عليها المشهدان، وقد فاضت السورة الكريمة بتعداد صورها ومظاهرها؛ لتقريرها وإثباتها، ففي المطلع يؤكد القرآن أنَّ الله ﷻ على كلِّ شيءٍ قدير، وأنه المحيي المميت العليم بكلِّ شيء، وفي الختام تعود هذه الدلالات مرة أخرى، فتؤكد الآيات على أنَّ الفضل بيد الله، وهو القادر وحده على أن يؤتيه مَن يشاء، مبينةً عجز أهل الكتاب عن التصرف فيه عطاء أو منعا.

---

(١) مراصد المطالع: ٦٩.

وهكذا يُظهِر هذا التطواف السريع بين سور جزء الذاريات ملمحاً مهماً من ملامح إعجاز القرآن البلاغي، وحسن نظمه، وجمال ترتيبه، إذ أبرز هذا المبحث بعض جماليات التناسب التي أمكن للباحث التقاطها وملاحظتها بين مطلع كل سورة وخاتمتها، حيث ظهرت كل سورة لحمة واحدة، يرجع آخرها إلى أولها، وينطبق مطلعها على مقطعها.

والمتأمل في هذه الجماليات يلحظ أنَّ القرآن الكريم يحرص على أن يكون مقصود السورة الأهم وفكرتها الرئيسة هو ما يرد في مطلعها، وهو نفسه ما يعود في خاتمتها ليُؤكَّد عليه بطريقة أو بأخرى، وتأتي بقية الموضوعات الجزئية التي تضمنتها السورة خادمةً لهذا المقصود، مما يجعل المتلقي الذي يمكنه ملاحظة هذا النوع من التناسب يقرأ السورة الكريمة بوصفها جملة واحدة أو فكرة رئيسة مفردة، لشدة ما بين أجزائها من تناسب، ولقوة العلاقات والوشائج التي تربط افتتاحها بخاتمتها.

* * *

المبحث الثاني: جماليات التناسب بين مشاهد السورة

سأسعى في هذا المبحث إلى محاولة استكناه بعض جماليات التناسب التي تكشف عن العلاقات الوثيقة التي تربط بين مشاهد السورة الواحدة، تلك العلاقات التي تجعل مَن يضع يده عليها يدرك عظمة هذا الوحي الإلهي ومدى إعجازه، وجمال نظمه

وترتيبه، ويُشده من كيفية انسياب المشاهد المتنوعة للسورة بدقة متناهية، وطريقتها في الانتقال بين المعاني المختلفة بسلاسة وعذوبة، مما يدل دلالةً قاطعةً على أنَّ هذا النظم الكريم لا يمكن أن يصدر عن بشر، مهما حاول إلى ذلك سبيلا.

وقبل أن أغوص في غمار في هذا المبحث أشير هنا إلى أنَّ البلاغيين تحدثوا عن بعض الفنون البلاغية التي تعالج هذا النوع من المناسبات، ومن أبرزها حسن الانتقال أو براعة التخلُّص الذي كشفوا من خلاله عن براعة استخدام القرآن الكريم في التنقُّل بين مشاهده، إذ ذكروا أنَّ من شروطه "لطف التخلُّص ورشاقته، وشرف التغلغل وفخامته، واستقصاء المعنى وغرابته، وقرب المقصد ومناسبته، انبساطاً روحانيا وطربا نفسيا"[1]، وهو ما تحقَّق في انتقالات القرآن أبلغ تحقُّق.

والقرآن يفيض بهذه الانتقالات البديعة، ولعلَّ قِلَّة الشواهد التي يوردها البلاغيون في هذا السياق راجعةٌ إلى شدَّة خفاء أسرارها ودِقَّتها، إذ يحتاج استكناه الجماليات التي تربط بين المشاهد تأملاً طويلاً وتدبُّراً دقيقاً حتى يمكن استيعاب العلاقات والصلات بينها، ولعل ابن أبي الإصبع قد أدرك ذلك حين قال: "وهو دقيقٌ يكاد يخفى في غير الشعر إلا على الحاذق من ذوي النقد، وهو مبثوثٌ في الكتاب العزيز إذا تُتبِّع وُجِد، كابتداء

(١) المنزع البديع: ٤٧٢.

فصولٍ تجدها متنافرةً في الظاهر لما قبلها من الفواصل أو غيرها، فلا يكاد يجمع بينهما إلا إنعام النظر، وتدقيق الفكر، هذا إذا كنتَ ممن له دربةٌ بهذه الصناعة"[1].

وسأعكف في هذه المساحة على البحث وراء الأسرار البلاغية التي تربط مشاهد السورة الواحدة، والكشف عن جماليات التناسب بين معانيها، مبيناً كيف كان القرآن ينتقَّل من مشهدٍ إلى مشهدٍ ببراعةٍ ولطفٍ وملائمة، غير أني سأجتهد هنا في تصنيف العلاقات التي بدتْ لي بعد تأملٍ طويل في مشاهد سور هذا الجزء وعلاقاتها ببعضها، إذ سأذكر مجموعةً من النماذج على كل علاقة، بخلاف عملي في المباحث السابقة الذي اعتمدتُ فيه على استقراء كل مواضع التناسب ورصدها؛ لسهولة تحديدها وحصرها، في حين أنَّ الانتقالات بين السورة الواحدة كثيرة، لتعدُّد مشاهدها، فما بالك بسبع سور تكوِّن هذا الجزء، ولهذا عمدتُ إلى تخصيص هذا المبحث بهذا التصنيف.

- التقابل والتضاد:

يلحظ المتتبع للمشاهد القرآنية في هذا الجزء أنَّ ذكر الضد والمقابل من أهم العلاقات التي تربط بينها، إذ يحرص القرآن على هذا النوع من الانتقالات ليكشف عن التفاوت الشديد،

(١) بديع القرآن: ١٦٨.

ويعمق من المفارقات بين الأحكام والمآلات وغيرها من القضايا التي يحرص القرآن على بيان الاختلافات بينها.

ولا غرو أن تؤدي العلاقات التقابلية بين المشاهد دوراً هاماً في الأسلوب القرآني؛ لأنَّ هذا النوع من المناسبات قادر على "مخاطبة قوى النفس جميعها، وذلك بتحريك قوة العقل، وتنشيط قوة الشعور، وتفعيل غريزة حب الاستطلاع، وذلك لتلبية حاجات النفس المتطلعة دائماً إلى المتعة الوجدانية والنكتة العقلية، والراغبة في الأسلوب الجميل والمعنى العميق"[1]، ثم إن هذا النوع من العلاقات يمثِّل وسيلةً يلجأ إليها القرآن كثيراً في أداء المعاني، وإقامة الحجة على الناس، وتحريك قلوبهم وعقولهم؛ لمعرفة الحق ومقتضياته، وتمييزه عن الباطل وأشكاله.

وقد برز هذا النوع من المناسبات بصورة كبيرة في مشاهد سور هذا الجزء؛ لأنَّها مكية مبكرة النزول، ومعروف أن من أهم وظائف القرآن حينها إثبات أصول الإيمان، وترسيخ قضايا العقيدة الثلاث في نفوس المشركين الذين كانت آيات هذا الجزء تخاطبهم في المقام الأول، وكانت المقابلات وبيان الأضداد والاختلافات من أهم طرق الاستدلال لها.

---

(١) المقابلة في القرآن الكريم: ٢٢٨.

ومن النماذج التي تظهر فيها هذه المناسبة بين مشاهد السور الكريمة ما يجده المتأمل في قوله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿ العظيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَالَ ﴾ (١٠-١٤)، ثم ينتقل السياق القرآني إلى الحديث عن المتقين: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿ ﴾ (١٥-١٩).

فبعد أن أقسم المولى ﷻ على ثبوت القيامة ووقوع الجزاء وعلى اختلاف أقوال الطاعنين في حقيقة البعث واضطرابها مما يؤكد إبطالها، دعا عليهم بالهلاك والقتل، إذ كانوا يسألون عن وقت قيام الساعة استهزاء بها وتكذيبا، فأجيبوا -تهكما وسخرية- بأنَّ وقتها سيكون يوم دخولهم النار، وحينها سيرون بأعينهم ما كانوا يستعجلون وقوعه، ويوقنون -حين يذوقون العذاب- أنَّ خرصهم واختلافهم وتكذيبهم هو ما قادهم إلى هذا المآل.

وحين يمتلئ شعور المتلقي بالرهبة والخوف، وتصدمه هذه الآيات التهديدية التي تكشف عن فظاعة حال أولئك المنكرين للبعث، الساخرين به، تتطلع نفسه إلى معرفة حال مَن آمن بهذا اليوم الموعود، وصدَّق بالنبي ﷺ فيما أنذر به وأخبر عن وقوعه ومآلات الخلق فيه، فجاء هذا الانتقال البديع ليكشف بالتفصيل عن جزاء المتقين، ومالهم من نعيم مقيم، ورضى بالحساب والمآل.

ولا يكتفي المشهد بتعداد ألوان النعيم، بل يتجاوز هذا إلى بيان الأسباب والعلل التي أدَّت إلى نيل المتقين هذا التكريم، إذ كانوا في الدنيا محسنين، مما جعلهم يُضحُّون بأمرين: الأول: النوم والراحة، فهم في الليل بين قيام وتسبيح، الثاني: الأموال، فهم يرون فيها حقوقاً واجبةً لمستحقيها، طاعةً لله ﷻ وامتثالاً لأوامره.

وفي هذا التصوير البديع تعرض الآيات مشهدا من مشاهد يوم القيامة، هذا اليوم الذي توالت أقسام المطلع على تأكيد وقوعه، وثبوت الجزاء فيه، وتكشف عن وجود فريقين متناقضين في الحال، متقابلين في العمل، متضادين في المآل، وكان هذا التقابل حاسماً في عرض الصورتين المختلفتين لأهل النار وأهل الجنة، فلا يتردَّد ذو اللب السليم في اختيار الحال والمآل الذي يريد أن يلقى الله به يوم القيامة.

ومن جماليات التناسب بين المشهدين التأكيد فيهما على الأسباب المؤدية إلى هذا التقابل، وإذا مرَّ آنفاً الإشارة إلى أسباب نيل المتقين لهذا النعيم ففي مشهد المكذبين مثل ذلك، إذ كذبوا بيوم الدين، وانشغلوا بمعاداة الدعوة الإسلامية عن التفكر فيها، وسخروا من حقيقة البعث والجزاء، وذكر هذه الأسباب يزيد في انسجام المشهدين، ويبعث في النفوس التأمل في الطرق المؤدية إلى كل مآل، والتدبر في الأسباب التي تكون

حاسمة في تحديد الفريق الذي سينتمي إليه المتلقي ويكون منه يوم القيامة.

ومن النماذج التي جاءت فيها علاقة التضاد والتقابل بوصفها رابطا بين مشهدين في هذا الجزء ما يراه المتأمل في سياق قوله ﷻ في الطور: ﴿الْأَحْقَافِ مُحَمَّدٍ الْفَتْحِ الْحُجُرَاتِ قٓ الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَٰنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ﴾ (٩-١٦)، ثم انتقل السياق إلى الحديث عن جزاء المؤمنين ومالهم من النعيم المقيم: ﴿الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ﴾ (١٧-٢٨).

فحين بدأت السورة الكريمة بأقسام متوالية تؤكد وقوع العذاب واستحالة منعه ونجاة المستحقين منه كشفت الآيات بعد ذلك عن مشهد من مشاهد ذلك اليوم الذي سيحلُّ فيه العذاب، حين تتغير الطبيعة الكونية، وعندها يوقن المكذبون بوقوعه وصدق الإخبار به، وهنا تشرع الآيات في وصف ما سيلقاه هؤلاء من صنوف العذاب، وأشد منه ذلك الإذلال والتحقير والاستهزاء، من خلال تذكيرهم بمواقفهم الشنيعة في الدنيا، من خوض ولعب وتكذيب، مما أدى بهم إلى هذا المآل.

وحين يستشعر القارئ هذه المشاهد المرهبة، ويسيطر عليه جو التهديد والوعيد، ويصيبه شيء من اليأس من شدة ما يتصوره من عذاب وتنكيل، يأتي المشهد الثاني ليرسم أجمل لوحات الرضى والنعيم، ويصور أروع مشاهد الطمأنينة

والسكون، فتكشف الآيات عن الثواب العظيم الذي أعده المولى ﷻ لأولئك الذي آمنوا بالبعث وأيقنوا بوقوع العذاب فيه، فأفصح هذا التقابل عن ترغيب بعد تخويف، وطمع بعد يأس ورجاء، وطمأنينة وسكون بعد قلق وخوف ورعب، مما يجعل النفوس تعيش بين الرغبة والطمع في ثواب الله، فيحثها ذلك على اتباع أوامره، وبين الرهبة والخوف من عذابه، فيجعلها مجتنبة لنواهيه على الدوام.

يقول البقاعي في سياق حديثه عن المناسبة بين هذين المشهدين: "ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب المشار إليه بكلمات القسم، أتبعه ما لأضدادهم من الثواب المنبه عليه أيضاً بتلك الكلمات؛ ليتم الخبر ترغيباً وترهيباً، فقال جواباً لمن كأنه قال: فما لمن عاداهم فيك؟ مؤكداً لما للكفار من التكذيب: (إن المتقين)"[1]، ويقول ابن عاشور في بداية حديثه عن مشهد المتقين بأنَّ هذه الآيات "استئناف بياني بعد أن ذكر حال المكذبين وما يقال لهم، فمن شأن السامع أن يتساءل عن حال أضدادهم، وهم الفريق الذين صدَّقوا الرسول ﷺ فيما جاء به القرآن، وخاصة إذ كان السامعون المؤمنين، وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه"[2]، وهي طريقةٌ متميزة من

(١) نظم الدرر: ١٢/١٩.
(٢) التحرير والتنوير: ٤٥/٢٧.

طرق القرآن في مثل هذه السياقات، من شأنها أن تبرز الحقائق الغيبية عن اليوم الآخر التي يصعب إدراكها إلا باستخدام الوسائل المناسبة في الإقناع والإمتاع، ففيها تكتمل جميع المشاهد، وتجتمع كل المعلومات الضرورية والكافية لإقامة المفاضلة، وحسن الفهم، وسلامة الاختيار(١).

ومن جماليات التناسب بين المشهدين ما جاء على لسان المتقين في آخر مشهد النعيم، حين قالوا: ﴿الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة﴾ ، وهنا يستحضر القارئ صنوف العذاب المرسومة في المشهد السابق، ويستوعب فضل المولى ﷻ على أصحاب هذا المشهد، ويدرك حجم فرحتهم وعمق امتنانهم.

ومن النماذج التي تتكشف فيها علاقة التضاد والتقابل بين مشاهد سور هذا الجزء الكريم ما يجده المتأمل في قوله ﷻ في الحديد: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴿﴿بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴾ ، ثم تنتقل الآيات إلى مشهدٍ مقابل: ﴿ ﴾﴿بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾ (١٣-١٥).

(٣) انظر: المقابلة في القرآن الكريم: ٢١٩.

فقد جاءت هذه الآيات في سياق وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة، حيث كانت الآيات قبل ذلك تتحدث عن وعد الله ﷻ للمحسنين بأنَّ أجورهم تتضاعف يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجزى فيه كلٌّ بعمله، وهنا تكشف الآيات عن مشهد المؤمنين السعداء والمؤمنات السعيدات، مصورةً النور الذي يحيط بهم من كل جانب، "فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذُهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون سعى بسعيهم ذلك النور جنيباً لهم ومتقدما، ويقول لهم الذين يتلقَّونهم من الملائكة: (بُشْراكُمُ اليوم)"[1].

وحين ترسخ هذه الصورة المشرقة المبشرة، حيث النور الموهوب لأهل الإيمان في ذلك اليوم العصيب، تنتقل الآيات إلى صورة مضادة، ومشهد مقابل، إذ تكشف الآيات عن فريق مختلف بمآل مختلف، وهم أهل النفاق الذي يطلبون من المؤمنين أن يتريثوا في سيرهم حتى يلحقوا بهم فيستضيؤوا بالنور الذي بين أيديهم وبجانبهم، وذلك يقتضي أنَّ الله يأذن للمؤمنين الأولين بالسير إلى الجنة فوجا، ويجعل المنافقين الذين كانوا بينهم في المدينة سائرين وراءهم... والمعنى: أنهم

---

(١) الكشاف: ٤/٤٧٥.

يسيرون في ظلمات، فيسأل المنافقون المؤمنين أن ينتظروهم[1].

وهذا الانتقال البياني والتحول البديع يشعر بالتفاوت الشديد والاختلاف الأكيد بين حال المؤمنين وحال المنافقين يوم القيامة، ويبعث في النفوس الشعور بلذة الفوز العظيم والحظوة البالغة التي ينالها المؤمنون، يقول البقاعي: "ولما عظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في الوقت الكائن فيه، عظَّمه بما لأضدادهم من النكال، فقال مبدلاً من الظرف الأول: (يوم يقول)"[2].

ومن جماليات التناسب بين المشهدين ما يراه المتأمل في تأكيد القرآن الكريم على النور الذي أحدث المفارقة بين مشهد المؤمنين ومشهد المنافقين، هذا النور الذي عمَّق من تقابل الفريقين وتضادهم، فالمؤمنون يحظون به، وينعمون بضيائه، ويسترشدون بهديه في يوم عصيب رهيب، وهو يحيط بهم من كل جانب، فيقودهم إلى الفوز العظيم حين تبشرهم بالملائكة بما ينتظرهم من جنات وأنهار.

أما المنافقون فمشهدهم يرتكز أيضاً على هذا النور الذي تفضَّل به المولى ﷻ على المؤمنين، هذا النور الذي حُرموا منه

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٤/٤٧٥.
(٢) نظم الدرر: ٢٧/٣٨٢.

بسبب تكذيبهم وخداعهم، فهم متخبطون يوم القيامة في ظلام دامس، في أشد الحاجة إلى نور يضيء لهم الطريق، وهنا لا يجدون بداً من التوسل للمؤمنين بأن ينتظروهم حتى يقتبسوا شيئاً من هذا النور.

وهذا الاقتباس المأمول منهم إما أن يكون حقيقيا، بأن يتوهموا أن ما يرونه نور شعلة يمكنهم أن يأخذوا منه قبسا، أو أن يكون بمعنى الانتفاع من الضوء والاهتداء به، وفي الحالين لا يجدون غير الخيبة والحسرة، إذ تجيبهم الملائكة بأن يعودوا خلفهم لعلهم يجدون نورا؛ تهكما بهم، حيث أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بين الفريقين؛ لأنَّ الخيبة بعد الطمع أشد حسرة، وهو استهزاء بهم وسخرية منهم جزاء على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من استهزاء وسخرية[1]، وهنا يدرك القارئ أن النور هو المعنى المركزي الذي يجمع بين المشهدين، وهو الذي بسببه رُسم المشهدان، ومنه كان هذا الحوار المخيف المرعب.

ومن الجماليات التي أضافت بين المشهدين مزيداً من الانسجام والتناغم النصُّ على ذكر الجنسين، الرجال والنساء، إذ تجد في المشهد الأول المؤمنين والمؤمنات، وتجد في المشهد الثاني المنافقين والمنافقات، وهو ما يشعر بعظيم عدله ﷻ، وأنه

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٣٨٣/٢٧.

لا فرق بين الجنسين في مثل هذه المواقف، ثم إن في ذلك ما يعمق من مستوى المفارقة بين المآلين، ويجعل آثار المشهدين أكثر قوة وشمولا.

- الإنذار والتهديد:

يلحظ المتأمل في بعض سور القرآن الكريم أنَّ العلاقة بين مشاهدها قد تكون مرتكزة على فكرة الإنذار والتهديد، أي أنَّ القارئ يرى في المشهد الأول حكايةً لمواقف صادمة وشنيعة تجاه الدعوة الإسلامية، وتصويراً لتصرفات أو أفعال أو أقوال تكشف عن شدة جحود أصحابها وإنكارهم للأصول الرئيسة التي جاء الإسلام لترسيخها وتأكيدها، ثم يرى في المشهد الثاني ما يفصح عن ألوان من التهديد، وصور من الإنذار والوعيد، الذي ينتظر أمثال هؤلاء، ممن أعماهم الكبر، وألهتهم الدنيا، وتحكَّم في نفوسهم الهوى، مما يجعل بين المشهدين علاقةً وثيقة، وانسجاماً بديعاً، يجعل المتلقي يدرك مدى خطورة هذه المواقف، وحجم العقاب الذي ينتظرهم، كما يجعل هؤلاء المشركين يعيدون النظر في هذه التصرفات والأفعال، ويندمون على كل ما صدر عنهم من تكذيب وإنكار وجحود، ويتفكرون في مصائرهم المخيفة إن أصروا واستمروا عليها.

ولا غرو أن يبرز هذا النوع من المناسبات في سور هذا الجزء ميدان الدراسة، وتكثر مثل هذه العلاقات بين مشاهدها، فهي مكية من أوائل ما نزل من القرآن، وكان الخطاب فيها للمشركين في المقام الأول، إذ كانت الآيات تدعوهم للإيمان بأصول الدعوة الثلاثة، فيواجهونها بالتكذيب والإنكار، فيُسمعهم القرآن أبلغ صور الوعيد والتهديد.

ومن النماذج التي يظهر فيها هذا النوع من المناسبات بين مشاهد هذا الجزء ما يراه المتأمل في قوله ﷻ في الذاريات: ﴿الْإِسْرَاءِ الْكَهْفِ مَرْيَمَ طٰهٰ الْأَنْبِيَاءِ الْحَجِّ الْمُؤْمِنُونَ النُّورِ الْفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ﴾ (٢٠-٢٣)، ثم ينتقل السياق إلى الإشارة إلى قصة إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، كلوط وموسى وعاد وصالح ونوح عليهم السلام، وذلك ابتداء من قوله ﷻ: ﴿الدُّخَانِ الْجَاثِيَةِ الْأَحْقَافِ مُحَمَّدٍ الْفَتْحِ الْحُجُرَاتِ ق الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمٰنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ﴾ (٢٤-٤٦).

فحين أقسم المولى ﷻ على حقيقة البعث ووقوع الجزاء، وأشار إلى الخراصين والمتقين ومالهم من العقاب والثواب، ثم عاد إلى تأكيد إثبات البعث والحشر، مما يفصح عن عمق تكذيبهم وشدة إنكارهم، انتقل إلى الحديث عن بعض الأنبياء السابقين، وتصوير مشاهد من مواقف أقوامهم من الإيمان، وكيف كان مآلهم نتيجة هذه المواقف، مفتتحاً المشهد باستفهام تقريري موجه إلى النبي ﷺ.

ولعل أبرز ما يظهر من مناسبات بين هذين المشهدين ما يشعر به القارئ من جو يفيض رهبة وتخويفا، ويمتلئ وعيداً وتهديدا، حيث كان المشهد الأول يؤكد بكل قوة على حقيقة البعث، ويشير إلى موقف المشركين منه، إذ كذَّبوا به وسخروا منه، وبعد أن توعَّدهم المولى ﷻ بالعذاب الشديد، عاد مرة أخرى إلى بيان إنكارهم وشدة جحودهم، حين أقسم لهم بنفسه

أن ما وُعدوا به حق مثل حقيقة نطقهم، وهنا كان لا بد من العودة إلى إنذارهم وتخويفهم من هذه المواقف المنكرة، خاصة وهم يستمعون إلى هذه الأقسام المتعددة على قيام البعث، ويصغون إلى تلك التأكيدات المتنوعة على يقينية الحساب، فجاء المشهد مصوراً مآلات بعض الأمم السابقة الذين اختاروا الجحود والتكذيب، والسخرية بأنبيائهم ورسلهم، لعله يكون رادعاً لهؤلاء الطغاة، ومدعاة للندم والتوبة والإيمان.

وقد تنبه المفسرون لهذه المناسبة، فأبانوا عنها في سياق حديثهم عن المشهد الثاني وكيف انتقلت الآيات إليه، يقول البقاعي: "ولما بيَّن بما مضى من القسم وما أتبعه من أنه أودع في السماوات والأرض وما بينهما أسباباً صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير، وما توعدنا به من الشر وإن كنا لم نرها وهو قادر مختار، فصار ذلك كالمشاهد، ولا وجه للتكذيب بوعد ولا وعيد، دلَّ عليه وصوَّره بما شوهد من أحوال الأمم، وبدأ -لأنَّ السياق للمحسنين- برأس المحسنين من أهل هذه الأنباء"[1]، ويقول ابن عاشور في افتتاح حديثه عن مشهد إبراهيم عليه السلام بأنه "انتقالٌ من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل... وغُيِّر أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهةً إلى

(١) نظم الدرر: ١٨/٤٦٠.

أسلوب التعريض تفنناً بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئةً للمقصود من ذكر ما حلَّ بقوم لوط حين كذبوا رسولهم"[1].

ويتعاضد مع هذا الوجه من التناسب وجهٌ آخر يضيف إلى العلاقة بين المشهدين مزيداً من الانسجام والتناغم، وهو ما يشعر به القارئ من تسليةٍ للنبي ﷺ من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وتطمينٍ لقلبه الطاهر بعد أن أصابه ما أصابه من همٍّ وحزن؛ شفقةً بقومه وحرصاً على إيمانهم، وإذا كانت الآيات السابقة قد جاءت لتبين ما وصل إليه المشركون من إنكارٍ وتكذيبٍ لما أخبر به نبيهم من وقوع البعث، بدليل هذه الأقسام المتوالية على صدقه وقرب وقوعه، فإنَّ هذا المشهد جاء أيضاً ليبعث في قلب النبي ﷺ الطمأنينة والهدوء، ويبعد عنه الغم والحسرة، ويؤكد له أنه ليس أول مَن واجهه قومه بهذا الموقف، بل سبقه أنبياء كثيرون، مفصحاً عن مآلهم جراء جحودهم وتكذيبهم.

وقد تنبه بعض المفسرين إلى هذه المناسبات، فهذا الرازي يتوقف عندها طويلا، ويشير إلى علاقة طبيعة المشهد وما ورد فيه من خصوصية بالمناسبة، فيذكر في سياق تفسيره لبداية المشهد الثاني أن فيه "إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ، ببيان أنَّ غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار إبراهيم لكونه

(٢) التحرير والتنوير: ٣٥٦/٢٦.

شيخ المرسلين؛ كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته في بعض الأشياء، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين، وفيه مسائل: المسألة الأولى: إذا كان المراد ما ذكرت من التسلية والإنذار فأيُّ فائدةٍ في حكاية الضيافة؟ نقول: ليكون ذلك إشارةً إلى الفرج في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة والأغبياء، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب... فلم يكن عند إبراهيم ﷺ خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته"[1].

ويضيف الألوسي مناسبةً ثالثة بجانب الإنذار والتسلية، وهي إثبات النبوة وتقريرها، يقول عن مشهد إبراهيم ﷺ رابطاً بينه وبين ما قبله: "فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً للقسم ومعنى بما في المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مديحاً فيه صدق المبلغ، وقضى الوطر من تفصيله، مهَّد لإثبات النبوة، وأنَّ هذا الآتي الصادق حقيقٌ بالإتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: (هَلْ أَتاكَ)، وضمَّن فيه تسليته عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومه، فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة"[2].

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٧٤/٢٨، وانظر: البحر المديد: ٤٧٣/٥.
(١) روح المعاني: ١٢/١٤، وانظر: غرائب القرآن: ١٨٨/٦.

ومن النماذج التي تكشف عن مناسبة الإنذار والتهديد بين المشاهد ما يشعر به المتأمل حين يقرأ قوله ﷻ في النجم: ﴿ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَٰنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْحَاقَّةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ ﴾ (٣٣-٥٦)، وبعد أن استدعى السياق الحديث عن عظمة المولى ﷻ، والإشارة إلى بعض صفاته، وتأكيد قدرته على إهلاك الأمم السابقة، قال: ﴿الْمَائِدَةِ الْأَنْعَامِ الْأَعْرَافِ الْأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٥٧-٦٢).

فقد كان المشهد الأول يُعرِّض بأحد صناديد قريش الذين طغوا وكذَّبوا بدعوة النبي ﷺ، من خلال توجيه مجموعة من الاستفهامات التقريعية والأسئلة الإنكارية التوبيخية إليه، وفيها يتضح جهله وغباؤه وفظاعة ما ارتكبه من جرم، ثم ساق هذا إلى تعظيم الله ﷻ وبيان مدى قدرته وقوته، إذ كيف يكفر به هذا الضعيف وهو يرى دلائل قدرته وعظمته، وكيف يشرك به وهو يعلم عن مصائر الأقوام السابقة التي أهلكها المولى بسبب تكذيبها.

ثم يأتي المشهد الثاني ليوقع في نفس هذا الصنديد وفي نفوس المشركين أقسى عبارات التهديد وأشد معاني الوعيد، إذ تفصح الآيات عن قرب وقوع القيامة، وانتفاء كل شك عن حقيقتها وما يجري فيها من أهوال عظام، مؤكدة أنه لا يمكن لأحد معرفة وقتها إلا الله، وهو ما يضيف إلى جو المشهد مزيداً من التخويف والتهديد، فالتحم المشهدان، وجاء الثاني منهما

لتبلغ معه المعاني ذروتها في قوة الإنذار وشدة الرعب والترهيب، إذ تشير إلى قرب وقوع هلاك المشركين أسوة بهلاك الأمم السابقة التي عرفوها وعاينوا مصائرها.

يقول البقاعي: "ولما كان كلُّ آت قريباً، وكانت الساعة - وهي ما أنذر به من القيامة ومما دونها- لا بد من إتيانها؛ لما وقع من الوعد الصادق به المتحف بالدلائل التي لا تقبل شكاً بوجه من الوجوه، فكان باعتبار ذلك لا شيء أقرب منها، قال دالاً على ذلك بصيغة الماضي الذي قد تحقق وقوعه، وباشتقاق الواقع الفاعل مما منه الفعل: (أزفت الآزفة)"[1].

وقد زاد من شدة هذا المشهد وقوة الإنذار فيه تلك الاستفهامات التي توجهت بها الآيات إلى المشركين بعد أن كشفت لهم عن قرب وقوع القيامة، متعجبة منهم كيف أنهم يعجبون من هذا القرآن وما به من أخبار الغيب الصادقة، ومستنكرة عليهم لهوهم وسخريتهم وضحكهم واستهزاءهم، مع أن القرآن يؤكد لهم المرة تلو المرة أنَّ مصيرهم سيكون مشابهاً لمصير الأمم السابقة إن هم أصروا على عنادهم واستمروا على كبريائهم، فتلاحم المشهدان بهذا الرابط، وانسجمت الفكرتان بتلك العلاقة، وتبين للمتلقي كيف يتصاعد التهديد، ويترابط

---

(١) نظم الدرر: ٨١/١٩.

التخويف، وتبلغ السورة أقصى غايات التهديد والإنذار مشهدا بعد مشهد.

ثم إنَّ بين المشهدين ترابطاً من نوع آخر، يؤكد ما بينهما من جو التهديد والإنذار، وهو أنه أراد أن يكمل بهذا المشهد الأصول الثلاثة التي كانت الآيات تسعى إلى تقريرها في المشاهد الماضية، حيث أكدت السورة في سياقها على الوحدانية والألوهية ابتداء من قوله ﷻ: ﴿وَالأَحْزَابِ شَيْئًا قَطَاطًا﴾ وما بعدها، وفي مطلع السورة كان الإقسام على صدق الرسول ﷺ وحقيقة رسالته، وحين حكى المولى ﷻ تكذيبهم بهذين الأصلين، جاء هذا المشهد ليقرر بصيغة الإنذار الشديد والوعيد المخيف الأصل الثالث وهو وقوع الحشر والجزاء، يقول النيسابوري: "وحين فرغ من بيان التوحيد والرسالة ختم السورة بذكر اقتراب الحشر"(١).

- التسلية والتبشير:

نزلت معظم سور هذا الجزء في مكة في بدايات الدعوة الإسلامية، وفي فترةٍ كان المشركون هم مَن يملك زمام القوة والغلبة؛ نظراً إلى أعدادهم ومكانتهم في المجتمع المكي؛ لذا كان من الطبعي -حين لم يقبلوا بهذا الدين وأبوا اتباع الرسول الذي جاء به- أن يحاربوه بكل ما أوتوا من قوة، إذ إن مبادئه

(١) غرائب القرآن: ٢١٣/٦.

وأصوله تتعارض كلياً مع ما كان عليه أولئك القوم من عبادةٍ للأصنام وإنكار للبعث وغيرها من أمور الجاهلية الشركية التي كان عليها آباؤهم وأجدادهم، فكان هذا الموقف الرافض متوقعاً من نفوسٍ خيَّمتْ عليها ظلمات الجهل، وقلوبٍ غابتْ في غياهب الشرك والكفر، والاقتداء بالآباء الأولين والاهتداء بآثارهم.

لقد كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التي مرَّت بالمؤمنين، إذ عاشوا في امتحانٍ صعب، حيث كانوا يلقون الأذى، ويواجَهون السخرية، ويُقابَلون بالضحك والاستهزاء، وكان أكثر مَن يُواجِه ذلك قائد هذه الدعوة ورسولها الكريم ﷺ، ومَن يقرأ في السيرة النبوية عن تلك الفترة سيدرك حجم الأذى الذي كان يلقاه والمؤمنون في بدايات الدعوة الإسلامية، وقد أشار القرآن إلى أنواع من هذا الأذى في سور كثيرة، خاصة في المكية التي نزلت في هذا الفترة العصيبة، كما في قوله ﷻ: ﴿الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة﴾ (المطففين: ٢٩).

وقد كان الرسول ﷺ والذين آمنوا معه في حاجةٍ شديدةٍ إلى التثبيت من المولى ﷻ، حتى يمكنهم الاستمرار في هذه الدعوة المباركة، والثبات عليها، وتحمُّل الأذى في سبيلها، حتى تتجاوز هذه الفترة العصيبة التي يعانون فيها من الضعف والقلة، ولم يكن القرآن ليغفل عن أداء هذه المهمة، بل كان

حريصاً على تحقيقها، ومن الطبعي أن تركز السور المكية على بعث روح الأمل والتفاؤل في نفوسهم، وتحفيز المؤمنين وتشجيعهم على الثبات والتحمُّل، بوصفها سوراً نزلت في تلك الفترة القاسية العصيبة، ولذا كان من أبرز الأغراض التي سعى القرآن إلى تأديتها في آيات سور هذا الجزء تسلية الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر والتمكين، وهي معانٍ وأغراض كان المؤمنون في تلك الفترة في أشد الحاجة إليها.

ومن النماذج التي تكشف عن هذه العلاقة بين مشاهد سور هذا الجزء ما جاء في سياق قوله ﷻ في القمر: ﴿السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان﴾ (١-٨)، ثم ينتقل السياق إلى قوله ﷻ: ﴿ الله الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴾﴿ بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم أعوذ بالله من﴾ (٩-٤٢).

فقد افتتحت السورة بالوعيد والتخويف لهؤلاء المشركين الذين جحدوا بدعوة نبيهم ﷺ وكذبوا لها وسخروا منها، وأكَّدتْ خلال ذلك أنَّ إنكارهم قد بلغ الغاية، فقد كذَّبوا واتبعوا الهوى الذي جعلهم يرون كل معجزة سحرا، مع أنه جاءهم من أنباء الأمم السابقة ما يدل على حقيقة هذه الدعوة وصدق رسولها.

ولعل هذه الدلالات قد أوقعت في قلب النبي ﷺ نوعاً من الحزن، وفي صدره شيئاً من الضيق، إذ شعر أنه فشل في دعوته، وأخفق في أداء ما كلَّفه ربه به؛ لأنه لم يؤمن به إلا نفر

قليل في هذا الوقت المبكر، إضافة إلى شعوره بصعوبة هذه المهمة، لشدة عناد المشركين وكثرة أذاهم، وإصرارهم على كفرهم وعنادهم، وتكرر اتهامهم له بكل قبيح.

وهنا يجيء المشهد الثاني ليحكي عن مشاهد بعض الأمم السابقة، ويصور مواقفهم من أنبيائهم، وكيف أنهم كانوا يواجهونهم بالتكذيب والسخرية، ويقابلونهم بالكفر والجحود والاستهزاء، مما يبعث في نفسه ﷺ الطمأنينة والسكون، ويشعره بالتسلية والهدوء، ويجبر خاطره المنكسر، ويبشر قلبه الحزين، وبيان ذلك من جهتين؛ الأولى: أن حكاية هذه المواقف تدل على أن إخوته الأنبياء قد لقوا مثل ما يلقى الآن، وأنَّ أقوامهم كذبوا بهم كما يكذب به قومه في هذا الزمان، وهذا يشعره بالتسلية، كونه ليس أول من يواجه بذلك، وأنَّ عادة الأقوام مقابلة أنبيائهم بالجحود، وكون هذا الأمر طبيعياً معتاداً -بعد أن كان ﷺ يظن أنه غريب استثنائي- يُشعره بمزيدٍ من الطمأنينة، ويُسلِّي روحه وقلبه، في وقتٍ عصيبٍ كان في أشد الحاجة فيه إلى هذا الشعور.

الجهة الثانية: أنَّ هذه القصص والمواقف تؤكد له ﷺ أنَّ تعبه في دعوته لن يضيع سدى، وأنَّ تكذيبهم به لن يمر مرور الكرام، وأنَّ أذاهم له وسخريتهم منه واستهزاءهم بما جاء به عن ربه ﷻ سيكون له عاقبة وخيمة، وهو ما يُشعر الرسول ﷺ بمزيد من الرضى والطمأنينة، ويُسلِّي قلبه، ويصبِّر قلوب الذي

آمنوا معه، ويُبشِّرهم أنَّ كلمة الله هي العليا، وأنَّ النصر مضمونٌ لهم، وأنَّ العذاب الأليم ينتظر أولئك الساخرين الجاحدين.

وتلتقي مع هذه المناسبة مناسبة أخرى، سبق أن أشرت إليها آنفا، وهي مناسبة الإنذار والتهديد، وهاتان المناسبتان يشتركان كثيراً في مثل هذه الانتقالات التي تتحدث عن مصائر الأقوام السابقة، فكما أنَّ في ذلك تسليةً وتبشيراً له ﷺ، فكذلك فيه تهديدٌ وتخويفٌ لأولئك المشركين المكذبين، ووعيدٌ لهم بأنَّ مصيرهم سيكون كمصير أولئك الأقوام إن هم واجهوا نبيهم بمثل ما واجهوا به أنبياءهم، وفي ذلك عظةٌ وعبرةٌ لهم، وإنذارٌ لهم وإعذار، وترهيب بأفظع الصور وأكثرها رعباً وتخويفا.

وقد أشار كثيرٌ من المفسرين إلى هذه المناسبات، وتنبهوا إلى ما بين المشهدين من علاقةٍ قويةٍ وصلةٍ وثيقة، يقول السمرقندي حين انتقل إلى الحديث عن المشهد الثاني: "ثم عزَّى نبيه ﷺ ليصبر على أذى قومه كما لقي الرسل من قومهم"[1]، ويقول القرطبي: "ذكر جُمَلاً من وقائع الأمم الماضية تأنيساً للنبي ﷺ وتعزيةً له"[2]، ويُعقِّب الرازي على هذه القصص بقوله: "فيها تهوينٌ وتسليةٌ لقلب محمد ﷺ؛ فإنَّ حاله كحال مَن

(١) بحر العلوم: ٣٧١/٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣١/١٧.

تقدَّمه"[1]، أما ابن عرفة فقد جمع بين المناسبتين بقوله: "هذه تسليةٌ للنبي ﷺ وتخويفٌ وإنذارٌ لقريش، واحتُجَّ بنظائرها على إثبات القياس؛ لأنَّ قوم نوح أُهلكوا لأجل تكذيبهم، فلذلك هؤلاء"[2].

ونرى الطبري يقف طويلاً عند هذا الانتقال، ويكشف عن جمالياته التي يشعر من خلالها المتلقي بمدى الارتباط بين المشهدين، يقول في سياق حديثه عن مشهد تكذيب قوم نوح: "وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذكره، وتهديدٌ للمشركين من أهل مكة وسائر مَن أرْسَل إليه رسولَه محمدا ﷺ على تكذيبهم إياه، وتقدَّم منه إليهم إنْ هم لم ينيبوا مِن تكذيبهم إياه، أنه مُحِلٌّ بهم ما أحلَّ بالأمم الذين قصَّ قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومنجٍّ نبيه محمداً والمؤمنين به، كما نجَّى من قبله الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلَّها بأممهم"[3]، وإلى هذه المناسبات أشار غيرهم من المفسرين[4].

ومن النماذج التي تفصح عن هذا النوع من المناسبات بين المشاهد ما يلحظه المتأمل في قوله ﷻ في الذاريات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٩٣/٢٩.
(٤) تفسير ابن عرفة: ١١١/٤.
(٥) جامع البيان: ٥٧٦/٢٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٣/٥، الفواتح الإلهية: ٣٦٩/٢، التحرير والتنوير: ١٧٩/٢٧.

الرَّحِيمِ صدق الله العظيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ثم في انتقال السياق إلى قوله ﷻ: ﴿ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴾﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ أَعُوذُ ﴾.

فقد جاء المشهد الأول ختامياً لقصص الأقوام السابقة التي بدأت بقصة إبراهيم عليه السلام وانتهت بقصة نوح عليه السلام، وما تلا ذلك من بيان قدرة المولى ﷻ في خلق السماء والأرض مما يدعو إلى وجوب الإيمان به والخشية منه والفرار إليه، إذ يؤكد القرآن في هاتين الآيتين على أنَّ كلَّ الأقوام السابقة كانوا يواجهون أقوامهم باتهاماتٍ شنيعةٍ لا تصدر إلا عن قلوبٍ تمتلئ حسداً، وتفيض كِبْرا، وعقولٍ تهيم في الضلال المبين، وأنَّ هذا هو ديدن المتكبرين الجاحدين الذين بلغوا الغاية في الكفر والتكذيب والطغيان.

وهنا يصل شعور النبي ﷺ باليأس مبلغه، ويتقطع قلبه حزناً على قومه الذين اختاروا التكذيب به، وقد يتهم نفسه بالتقصير في الدعوة؛ فيزيد الضيق في صدره، وتتضاعف الآلام في قلبه، خاصة وهو يرى مصائر الأقوام الماضية التي تحدث عنها القرآن في المشهد الأول، فيأتي هذا المشهد مسلياً قلبه ﷺ، ومؤنساً له في هذه الوحشة الرهيبة، ومطمئناً له في هذا الموقف العصيب، إذ يأمره المولى ﷻ بالإعراض عنهم، وعدم تحميل نفسه مسؤولية إيمانهم؛ لأن مهمته تتوقف عند التذكير، أما

استجابتهم فهي بيد الله وحده، وهذا كفيل بإزاحة هذا الهم الثقيل الذي كان يثقل صدره ﷺ.

يقول البغوي في تفسير آية الأمر بالإعراض، مستحضراً سبب نزول ما بعدها: "(فتولَّ عنهم): فأعرض عنهم، (فما أنت بملوم): لا لوم عليك، فقد أديت الرسالة وما قصرت فيما أمرت به، قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ، واشتد ذلك على أصحابه، وظنوا أنَّ الوحي قد انقطع، وأنَّ العذاب قد حضر إذا أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ﴾ ، فطابت أنفسهم"(١).

وقد تنبه المفسرون إلى هذا الانتقال الذي عمد من خلاله القرآن إلى تسلية النبي ﷺ حين أصابه الضيق وخالط قلبه اليأس، يقول الرازي: "هذه تسليةٌ أخرى؛ وذلك لأنَّ النبي ﷺ كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير، ويقول إنَّ عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ، فيجتهد في الإنذار والتبليغ، فقال تعالى: قد أتيتَ بما عليك، ولا يضرك التولي عنهم، وكفرهم ليس لتقصيرٍ منك، فلا تحزن؛ فإنك لست بملوم بسبب التقصير، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد"(٢)، ويقول البقاعي رابطاً بين المشهد السابق وهذا المشهد: "ولما كان ﷺ يكاد يتلف

(١) معالم التنزيل ٢٨٨/٤، وانظر: لباب التأويل: ١٩٧/٤.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩١/٢٨.

نفسه الشريفة -بأبي هو وأمي- غماً عليهم وأسفاً؛ لتخلصهم عن الإسلام، وخوفاً أن لا يكون وفَّى بما عليه من التنبيه والإعلام، سبَّب تعالى عن حالهم قوله: (فتولَّ عنهم)"[1]، وبهذا ترتاح نفسه الشريفة، ويهدأ صدره، ويطمئن قلبه.

ويؤكد ابن عاشور على هذه المناسبة وأثرها في نفسه ﷺ، مستحضراً مجموعةً من الآيات المشابهة التي كان القرآن يسليه ويبشره من خلالها، يقول عن آية الأمر بالإعراض بأنها "تفريعٌ على قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ **قال تعالى:**﴾ إلى قوله: ﴿ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ﴾ لمشعر بأنهم بُعداء عن أن تقنعهم الآيات والنذر فتول عنهم، أي أعرض عن الإلحاح في جدالهم، فقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمانهم، ويغتم من أجل عنادهم في كفرهم، فكان الله يعاود تسليته الفينة بعد الفينة كما قال: ﴿﴾﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (الشعراء: ٣) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ:﴾﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (الكهف: ٦) ﴿الْحَقِّ الْمُزَّمِّلُ الْمُدَّثِّرُ الْقِيَامَةِ الْإِنسَانِ الْمُرْسَلَاتِ النَّبَإِ النَّازِعَاتِ عَبَسَ﴾ (النحل: ١٢٧)"[2].

هذه هي أبرز أنواع المناسبات التي يمكن أن يلحظها المتأمل بين مشاهد سور هذا الجزء الكريم، وقد لاحظ المتأمل كيف كان

---

(٣) نظم الدرر: ٤٧٩/١٨.
(١) التحرير والتنوير: ٢٣/٢٧.

القرآن حريصاً على الترابط بين مشاهد السورة الواحدة، وكيف أنَّ هذه الانتقالات كانت تجري على طريقة بديعة ونحو متميز، إلى درجة لا يشعر معها القارئ بتغير الموضوع واختلاف الفكرة، لما بين المشهدين من قوة الانسجام وجمال التناغم وشدة الارتباط.

وقد كشف هذا المبحث عن أهم أنواع المناسبات والعلاقات التي انتظمت مشاهد جزء الذاريات، وهي التقابل والتضاد، والإنذار والتهديد، والتسلية والتبشير، ولم يكن غريباً أن تغلب هذه العلاقات على هذا الجزء؛ لأن سوره كانت مبكرة النزول، وكانت هذه العلاقات والمناسبات من أهم الدلالات التي كانت الدعوة الإسلامية تحتاجها في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي.

* * *

الخـــاتمـــة

سـعتْ هـذه الدراسـة إلـى الكشـف عـن الأسـرار البلاغيـة والجماليات البيانية للتناسب في جزء الذاريات الذي يضم سبع سور هي: الذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد، إذ حاولتْ أن تجلي الصلات والوشائج التي جعلت هذه السور الكريمة تجيء على هذا الترتيب المعجز، وتفصح عن المناسبات بين آيات السورة الواحدة ومشاهدها، ويمكن إجمال أهم نتائج الدراسة في الآتي:

١- أكَّدتْ الدراسة بكلِّ جلاءٍ ووضوح عظمة الوحي الإلهي وإعجاز الكلام الربَّاني، وأنه بلغ من البلاغة والفصاحة والبيان الغاية والمنتهى، وأنه لا يمكن لبشر أن يأتي به.

٢- كشفتْ الدراسة عن تلاحم سور هذا الجزء، وشدَّة اتصالها ببعضها، من خلال التناسب الوثيق بين مطلع كل واحدة منها وخاتمة ما قبلها، حتى أخذ بعضها برقاب بعض، وصارت كالسورة الواحدة.

٣- أفصحتْ الدراسة عن مناسبات لطيفة وجماليات بديعة برزت من خلال التأمل بين مشاهد الختام ومشاهد الافتتاح، زادت من وشائج الاتصال، وأضافت إلى انسجامها جمالا فوق جمال، مما يجعل العاقل المتدبر لا يشك لحظة أن هذا الترتيب جاء بوحي منه ﷻ، لا مجال فيه لاجتهاد بشري.

٤- بيَّنتْ الدراسة قوة تلاحم سور هذا الجزء، وانسجام موضوعاتها، وشدة اتصال كل واحدة منها بما قبلها أجمل اتصال، وتعلقها بها أروع تعلق، حتى إنك لتكاد أن تعد سور هذا الجزء سورة واحدة لالتحام سوره، وارتباط أفكارها، وإكمال بعضها لبعض.

٥- أكدتْ الدراسة على أنَّ توالي هذه السور بهذا الترتيب لم يكن محض صدفة أو باجتهاد بشري، بل كان بوحي إلهي، وتوجيه رباني، فما هذا الانسجام والتناغم والترتيب والاتساق البديع إلا أكبر دليل على عظمة هذا الكتاب، وبلوغه أعلى مراتب البلاغة والبيان.

٦- أظهرت الدراسة ملمحاً مهماً من ملامح إعجاز القرآن البلاغي، وحسن نظمه، وجمال ترتيبه، إذ أبرزتْ بعض جماليات التناسب التي يمكن التقاطها وملاحظتها بين مطلع كل سورة وخاتمتها، حيث ظهرت كل سورة لحمة واحدة، يرجع آخرها إلى أولها، وينطبق مطلعها على مقطعها، لما بينهما من الوشائج والصلات.

٧- كشفت الدراسة عن حرص القرآن الكريم على أن يكون مقصود السورة الأهم وفكرتها الرئيسة هو ما يرد في مطلعها، وهو نفسه ما يعود في خاتمتها ليُؤكَّد عليه بطريقة أو بأخرى، وتأتي بقية الموضوعات الجزئية التي تضمنتها السورة خادمةً لهذا المقصود، مما يجعل المتلقي الذي يمكنه ملاحظة هذا النوع

من التناسب ينظر إلى السورة بوصفها جملة واحدة أو فكرة رئيسة مفردة، لشدة ما بين أجزائها من تناسب، ولقوة العلاقات التي تربط افتتاحها بخاتمتها.

٨- كان القرآن حريصاً على ترابط مشاهد السورة الواحدة، من خلال الاعتماد على انتقالات كانت تجري على طريقة بديعة ونحو متميز، إلى درجة لا يشعر معها القارئ بتغير الموضوع واختلاف الفكرة، لما بين المشهدين من قوة الانسجام وجمال التناغم وشدة الارتباط.

٩- كان من أهم أنواع من المناسبات والعلاقات التي انتظمت مشاهد جزء الذاريات: التقابل والتضاد، والإنذار والتهديد، والتسلية والتبشير، ولم يكن غريباً أن تغلب هذه العلاقات على هذا الجزء، إذ كانت سوره كانت مبكرة النزول، وكانت هذه العلاقات والمناسبات من أهم الدلالات التي كانت الدعوة الإسلامية تحتاجها في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي.

هذا، ومن أبرز التوصيات التي يمكن تدوينها هنا ضرورة العناية بالتناسب البلاغي في القرآن الكريم، وبذل المزيد من الجهود للاهتمام به، ومحاولة رصد اللمحات البلاغية والإشارات البيانية والجماليات التي يمكن ملاحظتها من خلال ترتيب سوره ومشاهده وآياته، وتوجيه جهود الباحثين إلى دراسة هذا الجانب الإعجازي الذي لم ينل حقه من الاهتمام.

* * *

ثبت المراجع

١- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)**، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٣- **الإشارات والتنبيهات**، محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، (د.ط)، ١٤١٨هـ.

٤- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، اعتنى به: صلاح الدين العلايلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٥- **إمعان النظر في نظام الآي والسور**، محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٦- **الأنواء**، ابن قتيبة، نشر: محمد حميدالله، طبع حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م.

٧- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين البيضاوي، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).

٨- **الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني، تحقيق: د. محمد خفاجي ود. عبد العزيز شرف، دار الكتاب المصري: القاهرة، ودار الكتاب اللبناني: بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٢٠هـ.
٩- **بحر العلوم**، السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوض وزميلاه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
١٠- **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
١١- **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أبو العباس أحمد بن محمد عجيبة الحسني، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر حسن عباس زكي، القاهرة، (د.ط)، ١٤١٩هـ.
١٢- **بديع القرآن**، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).
١٣- **البديع في نقد الشعر**، أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، (د.ط)، ١٣٨٠هـ.
١٤- **البديع**، عبدالله بن المعتز، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٥- **البرهان في ترتيب سور القرآن**، أحمد بن الزبير الغرناطي، دراسة وتحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة الغربية، (د.ط)، ١٤١٠هـ.

١٦- **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
١٧- **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٨- **تسهيل السبيل في فهم معاني التنزيل**، لأبي الحسن محمد البكري، تحقيق: سليمان بن سليمان، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ (رسالة دكتوراه).
١٩- **تفسير ابن عرفة**، تحقيق: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
٢٠- **تفسير الطبرسي** المسمى: مجمع البيان في تسفير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
٢١- **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، مكتبة دار الفيحاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٢- **تفسير المراغي**، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
٢٣- **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر: دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٤- **تناسق الدرر في تناسب السور**، جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٥- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٢٦- **جامع الترمذي**، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ١٤٠٠هـ.
٢٧- **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٢٨- **جواهر البيان في تناسب سور القرآن**، أبو الفضل الغماري، مطبعة محمد عاطف وسيد طه، مكتبة القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
٢٩- **حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي** (بهامش حاشية القونوي).
٣٠- **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، المطبعة العامرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.
٣١- **حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي**، المكتبة الإسلامية، تركيا، (د.ت).
٣٢- **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين الشافعي، إشراف ومراجعة: د. هاشم مهدي، دار طوق النجاة، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.
٣٣- **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ابن حجة الحموي، دراسة وتحقيق: كوكب دياب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٤- **الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني شرف، (د.ط)، ١٩٦٠م.
٣٥- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالله التركي، مركز هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٣٦- **دلائل النظام**، عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، (د.ط)، (د.ت).
٣٧- **روح البيان**، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ.
٣٨- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، الألوسي، قرأه وصححه: محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
٣٩- **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٤١٦هـ.
٤٠- **صحيح الإمام مسلم**، ضبط وترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٤١- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.

٤٢- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.
٤٣- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، شرح وتصحيح وترتيب: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٤٤- **فتح القدير**، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ١٤٠٣هـ.
٤٥- **فضائل القرآن**، أبو عبيد، تعليق: وهبي سليمان غاوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٤٦- **الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية**، نعمة الله بن محمود النخجواني، المطبعة العثمانية بدار الخلافة العلية الإسلامية، ١٣٢٥هـ.
٤٧- **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٤٨- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، جار الله محمود الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
٤٩- **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علي محمد البغدادي (الخازن)، مطبعة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.

٥٠- **اللباب في علوم الكتاب**، ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، د. محمد حسن، د. محمد حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥١- **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٥٢- **لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات**، الفخر الرازي، تصحيح: أبو فراس الحلبي، المطبعة الشرفية، مصر، (د.ط)، ١٣٢٣هـ.

٥٣- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجمع العلمي بفارس، (د.ط)، ١٤١١هـ.

٥٤- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، عبدالله النسفي، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٥٥- **مراصد المطالع في تناسب المطالع والمقاطع**، جلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: عبدالمحسن العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٥٦- **مسند أبي داود الطيالسي**، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٥٧- **مسند الإمام أحمد**، شرح: أحمد محمد شاكر، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، (د.ت).

٥٨- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٩- **معالم التنزيل**، البغوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٦٠- **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
٦١- **المقابلة في القرآن الكريم**، بن عيسى باطاهر، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٦٢- **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، ١٤٢٠هـ.
٦٣- **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**، أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٩٥م.
٦٤- **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، القاسم بن محمد السجلماسي، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٦٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٦٦- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، فخر الدين الرازي، تحقيق: د. نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٦٧- **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين: دراسة بلاغية في التراث العربي**، سامي العجلان، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ (رسالة ماجستير).

* * *